جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي
كليّة العلوم الإسلاميّة
قسم الحضارة الإسلاميّة

محاضرات في مادّة دراسات قرآنيّة حديثة

سنة ثانيّة ماستر
تخصّص اللّغة العربيّة والدّراسات القرآنيّة

الدّكتور علي زواري أحمد

الموسم الجامعيّ: 1444هـ-1445هـ/2022م-2023م

محتوى برنامج المادّة

1 - مدخل مفلهيمي حول الدّراسات القرآنيّة الحديثة

2 - لمحة عن طبيعة الدّراسات القرآنيّة التّراثيّة.

3 - أهم اتجاهات البحث الغربي حول القرآن الكريم.

4 - ملامح الدّراسات القرآنيّة الحديثة.

5 - دوافع الاهتمام بالدّراسات القرآنيّة الحديثة.

6 - محاور الدّراسات القرآنيّة الحديثة.

7 - الدّراسات القرآنيّة الاستشراقيّة وعلاقتها بالدّراسات القرآنيّة الحديثة.

8 - الدّراسات القرآنيّة والمناهج الحديثة.

المحاضرة الأولى

مدخل مفاهيمي حول الدّراسات القرآنيّة الحديثة

نحاول في هذه المحاضرة الأولى أن نتطرق لبعض المفاهيم كمدخل لمحتوى هذه المادّة، وذلك من خلال العناصر التالية:

أولا – طبيعة الدّراسات القرآنيّة

الدّراسات القرآنيّة متواليّة ومستمرّة منذ البداية في البحث القرآنيّ، لم تتوقف في عصر من عصور هذه الأمة، من عصر الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – وحتى عصرنا الحاضر، فإذا كانت بداياتها في الجزيرة العربيّة مهبط الوحي الكريم ومبعث الرسالة الخالدة الخاتمة، فإنّ مسيرتها شملت البلاد العربيّة وغيرها، بل وعبر شتّى بقاع المعمورة كلّها.

وفي هذا لا يخفى على الدّارسين والباحثين أنّ هناك خصائص زمانيّة في الدّراسات القرآنيّة تتسم بها بحسب طبيعة كلّ زمان، فالدّراسات القرآنيّة في زمن التّابعين وتابعيهم هي غير الدّراسات في العصور التي بعدها، وكلّ تلك الدّراسات غير الدّراسات في العصر الحديث من ناحية المنهج والعرض والاهتمام.. .

كما أنّه لا يخفى على الدّارسين والباحثين أنّ هناك خصائص مكانيّة في الدّراسات القرآنيّة تتسم بها بحسب طبيعة كلّ مكان، فالدّراسات القرآنيّة في المشرق العربيّ تختلف عن الدّراسات القرآنيّة في المغرب العربيّ، والدّراسات العربيّة تختلف عن الدّراسات الغربيّة، .. وهكذا.

فالدّراسات القرآنيّة —كما قلنا – كثيرة جدا، منها القديم ومنها الجديد، ومنها ما هو على أصول وقواعد السّابقين، ومنها على خلاف ذلك، ومنها ما يدور في موضوعات الأوائل ومنها ما هو مختلف عنها، من هذا فإنّ مفردات مادتنا التي نحن بصددها تتعلق بنوع معين من الدّراسات القرآنيّة وليست كلّها، وهذا النّوع هو الدّراسات القرآنيّة الحديثة.

وعليه لا بد في البداية أن نحدّد مجال دراستنا في هذه المادّة، ولا يكون ذلك إلا ببيان المراد من الدّراسات القرآنيّة الحديثة، وحتى نبيّن ذلك نقف مع هذا المركب الثلاثيّ من الكلمات المكوّنة له، والمتمثلة في:

ثانيا – مفهوم كلمة دراسات

جمع مؤنث مفرده دِراسة، ومذكره دَرْس، مصدر درَسَ، درَسَ يدرُس، دَرْسًا ودُروسًا، وتعني بَحْثٌ، تحقِيقٌ، ومنه دَرَسَ الْمَوْضُوعَ: تَقَصَّاهُ وَبَحَثَ فِيهِ. وتُعرَّف كلّ دراسة حسب الميدان الذي توصف به، فيقال: دراسة ذاتيَّة، دِراسة ميدانيَّة، دِراسة تجريبيَّة، دِراسة إنسانيَّة، دِراسة اجتماعيَّة...وهكذا.

ثالثا – مفهوم كلمة قرآنيّة

قُرْآنِيّة لفظ مفرد، وهي اسم مؤنَّث منسوب إلى قُرْآن، ولفظ قُرْآن مفرد من مصدر قرَأَ، يقال قرَأَ يَقرَأ، قِراءةً وقُرْآنًا، ومنه يقال دراسة قُرْآنيّة، مَدْرسَة قُرْآنيّة، آية قرآنية.. .

رابعا – مفهوم كلمة حديثة

مفرد مؤنث مذكره حديث، جمع حِداث وحُدَثاءُ: جديد عصريّ، عكسه قديم، ومنه: استحدثَ الشَّيءَ، عدَّه حَديثًا، يقال: صدر هذا الكتاب حديثًا، أي مؤخَّرًا، شيء حديث البناء: بُني حديثًا، حديث عَهْد بالشَّيء: عرفه حديثًا. ويُقال العَصْرُ الحَديثُ؛ أي هو العَصْرُ الَّذِي نَعيشُ فيهِ. ومنه دراسة حديثة، مكتسبات حديثة، نظريَّة حديثة، آلات حديثة، صناعة حديثة... الخ.

وهناك تداخل بين الحديث والمعاصر، فهما كلمتان متقاربتان في المعنى، ويمكن استخدام كلّ منهما للإشارة إلى الوقت الحاضر، ومع ذلك فإنّ المعاصرة لها معنى آخر يشير إلى شيء موجود أو يحدث في نفس الفترة الزّمنية، كما تطلق على كلّ شيء جديد من القرن العشرين – على خلاف في تحديد الفترة الزّمنية من القرن – حتى زمننا الحالي، بينما يستخدم الحديث لتمثيل الوقت الحاضر، وما كان موجوداً سابقاً لكنّه تطوّر عبر الزّمن.

خامسا – مفهوم الدّراسات القرآنيّة كمركب وصفيّ

وأمّا من حيث الاصطلاح كمركب وصفيّ (مكوّن من كلمتين الدّراسات والقرآنيّة)؛ فإنّ مصطلح الدّراسات القرآنيّة يبدو حديثا باعتبار إغفال ذكره لدى القدامى، لكن مدلوله انطلق منذ فترة مبكرة من خلال الاهتمام بقضايا القرآن الكريم، فالمصنفات تحفظ بدقّة أن حركة التّأليف لم تغفل مطلقا الحديث عن علوم القرآن بمباحثه المتعددة، ولعلها بمجموعها تُشكل مدلول الدّراسات القرآنيّة عند القدامى، والمصنفات ذاتها لم تحفظ – أيضا – أنّها أتت على كل المباحث بالدّراسة والتنقيب، بل هناك العديد من المباحث أُشبعت بحثا في العصور المتأخرة، وما تزال المباحث تتجدد مع تغير العصور بحيث تظهر أشياء لم تكن في سابق عهدها محطّ بحث ودراسة وإن شملتها الإشارات وانطوت تحت بعض المباحث، وقد جدّ العصر الحديث بالعديد من الدّراسات الجديدة، كما سنرى لا حقا.

سادسا – مفهوم الدّراسات القرآنيّة الحديثة كمركب ثلاثيّ

ومن كلّ ما ذكرنا فإنّ المقصود بالدّراسات القرآنيّة الحديثة؛ هي الأبحاث الجديدة أو التي لها جذور قديمة أدّت لظهورها في الحاضر، هذه الأبحاث تبحث في القرآن الكريم وما يتعلق به من موضوعات مختلفة، وهي متباينة في مضمونها وطريقتها ومناهجها مع الأبحاث القديمة التي بحثت في القرآن وعلومه؛ كالتّفسير والتّجويد وغيرها من موضوعات القرآنيّة وما يتعلق بها من أبحاث تراثيّة معروفة.

المحاضرة الثانيّة

لمحة عن طبيعة الدّراسات القرآنيّة التّراثيّة.

في ثنايا حديثنا عن الدّراسات القرآنيّة الحديثة؛ فإنّ المطلوب منّا الحديث عن طبيعة الدّراسات القرآنيّة التراثيّة، حتّى تتميّز الجهود السّابقة عمّا هي عليه الدّراسات الحديثة.

أولا – حركة البحث والتّأليف في المجال القرآنيّ

المتتبّع لحركة البحث والتّأليف في القرآن الكريم يجدها انطلقت منذ العصر الأوّل، فقد كانت الدّراسات القرآنيّة — وما تزال – الشّغل الشّاغل والاهتمام الأكبر للعلماء والباحثين، فقد دأب الجميع على البحث والتّأليف، والدّراسة والتّنقيب في سائر العلوم المنضوية تحت القرآن الكريم، كقضية دلائل الإعجاز، والمجاز، والمعاني، والتّفسير، والقراءات، والرّسم، وغريب القرآن، ومشكل القرآن، ونظم القرآن، وعلوم القرآن المختلفة، والتي بلغت ما يزيد على ثمانين علما – كما قال السّيوطي رحمه الله تعالى – وغيرها من القضايا المتعلّقة بالبحث القرآنيّ، وبذلك تكوّنت مكتبة قرآنيّة تراثيّة شاملة حوت المصنّفات والكتب المختلفة والمتنوعة في مجال الدّراسات القرآنيّة.

وقد تميّزت بدايات تلك الدّراسات القرآنيّة بامتزاجها بغيرها من العلوم الشرعيّة، والمراد منها خدمة الشّرع الحكيم، وبيان أوجه الإعجاز القرآنيّ، ودفع ما يمكن أن يكون سببا في تشويه الدّين أو ظهور الالتباس في بعض قضاياه، كوقوع اللّحن وفهم بعض النّصوص على غير مرادها، أو تفشي القول في الشّرع بغير ضوابط وقواعد تحكم وجوه الاستنباطات والمفاهيم، وخصوصاً علم التّفسير الذي هو من أكثر الدّراسات القرآنيّة لصوقاً بالعلوم الشرعيّة.

ثمّ بعدها تميّزت الدّراسات القرآنيّة عن غيرها من العلوم الشّرعيّة، وذلك بتخصيص المؤلفين لرسائل مفردة في مباحث خاصّة من الموضوعات والقضايا المتعلقة بالقرآن الكريم، وخاصّة في ما يتعلق بعلوم القرآن.

ثمّ تميّزت بعدها الدّراسات القرآنيّة باتجاه المؤلفين إلى تأليف كتب جامعة لا تختصّ بمبحث واحد من مباحث القرآن الكريم وعلومه، وهذا التّسلسل الذي سار عليه التّأليف في الدّراسات القرآنيّة، هو التّطور الطبيعي الذي يتسق مع طبيعة الأشياء، ثم هو أيضاً التّسلسل الذي سار عليه التّأليف في علوم أخرى، مثل علوم اللّغة، وخصوصاً صناعة المعجمات، وكتب النّحو وغيرها.

يقول فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: "وحين تنظر فيما ذكرت في المؤلفات تجد كلّ واحد منها يتناول علمًا واحدًا من علوم القرآن الكثيرة، وقد اتجهت أنظار العلماء إلى تأليف كتب

تتحدث عن هذه العلوم جميعًا فتعرف كلّ علم تعريفًا موجزًا وتتناوله تناولًا ميسرًا، فكان هذا العلم الذي سموه "علوم القرآن" بالمعنى المدوّن".

ومن جملة تلك المصنفات في الدّراسات القرآنيّة، كما ذكرها ابن النديم في كتابه الفهرست، تفسير القرآن، معاني القرآن ومشكله ومجازه، غريب القرآن، القراءات، لغات القرآن، الوقف والابتداء، متشابه القرآن، فضائل القرآن، عدد آيّ القرآن، ناسخ القرآن ومنسوخه، نزول القرآن، أحكام القرآن، النّقط والشّكل للقرآن، اختلاف المصاحف، لامات القرآن، هجاء المصاحف، مقطوع القرآن وموصوله، أجزاء القرآن، وغيرها من المؤلفات في الدّراسات القرآنيّة في العصور المتقدّمة، فكلّ هذه الأبحاث كانت موضوعا لكثير من المؤلفات في فترة لم تتجاوز عام المائة الرّابعة الهجريّة، وهو عام الانتهاء من كتاب الفهرست لابن النديم.

وقد واصل العلماء بعد هؤلاء الأوائل المسيرة في البحث والكتابة والتّأليف في مختلف الدّراسات القرآنيّة وإلى العصر الحديث، وقد تنوعت اتجاهاتهم واختلفت طرقهم في ذلك، فمنهم من اتبع منهج المؤلفات الجامعة، ومنهم من ألّف في شيء واحد من قضايا القرآن، وكلّهم ينسجون دراساتهم القرآنيّة وفق الأصول والقواعد التي تعارف عليها علماء الإسلام في التّعامل مع القرآن الكريم وما سنّوه واستنبطوه من ضوابط في التّعاطي مع سائر العلوم الشرعيّة.

ثانيا – أسباب التّجديد في الدّراسات القرآنيّة

في عصرنا نهض التّأليف في الدّراسات القرآنيّة نهضة ملموسة، تمثّلت في كثرة الكتب والدّراسات المتمحورة حول القرآن الكريم، ولتلك النّهضة أربعة أسباب رئيسة، لم تكن موجودة في ما سلف من الزّمان:

السّبب الأوّل: تقرير مادّة الدّراسات القرآنيّة بمختلف تشكلاتها في الجامعات الإسلاميّة، وقد استتبع ذلك عكوف الأساتذة والباحثين على إعداد مذكرات دراسيّة لتدريس هذه المادّة، وقد تحولت هذه المذكرات إلى كتب متنوعة في الدّراسات القرآنيّة.

السّبب الثّاني: التّصدي للرد على المستشرقين والمنصرين والعلمانيين والحداثيين وأصحاب النّظريات والمناهج الحديثة؛ فقد صادفت هذه المرحلة ظاهرة الاستعمار وما انجرّ عنه من ظاهرتي الاستشراق والتنصير، وقد كان البحث في الدّراسات القرآنيّة قبل هذا التاريخ محصوراً في علماء المسلمين، ولم يكن بينهم خلاف حول الأسس الكبرى لهذا الدّراسات، وأمّا المرحلة الجديدة فقد تميّزت بدخول المستشرقين والمنصرين على الخط وعلى أعقابهم العلمانيون والحداثيون، ونشرهم للكثير من الدّراسات حول القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة، تميّزت بعداء واضح وتعصب مقيت، وتسليط المناهج الحديثة بما يجافي المنهج

العلميّ الأصيل من جهة، وبما يبعد الباحث من هؤلاء على الإنصاف من جهة أخرى، لذلك بذل علماء المسلمين جهداً كبيراً مشكوراً في الرّد على افتراءات هؤلاء وشبهاتهم، وبيان انحرافهم عن المنهج العلمي.

السّبب الثّالث: الإجابة عن نوازل جدّت في العصر الحديث، لم يجب عنها العلماء السّابقون؛ لأنها لم تطرح في عصرهم، أو لم تكن بالحدّة نفسها التي تطرح بها نفسَها اليوم، مثل: ترجمة القرآن الكريم، والالتزام بالرّسم العثمانيّ، والإعجاز العلميّ، والتّفسَير العلميّ، والتّفسير الموضوعيّ وغيرها.

السّبب الرّابع: الكتابة بأسلوب معاصر ولغة ميسرة، فضرورة العصر تتطلّب الكتابة في الدّراسات القرآنيّة بلغة معاصرة، تفهمها الأجيال الجديدة، التي قد يوجد فيها من لا يفهم لغة الكتب التّراثيّة.

ثالثا – نماذج من الدّراسات القرآنيّة الجديدة

نذكر هنا مجموعة من الدراسات التي حاولت أن تعي نوعا من التّطوير والتّجديد للدراسات القرآنيّة، وما أكثر تلك الدّراسات، ولكن نذكر منها على سبيل البيان؛ كتاب المدخل إلى الدّراسات القرآنيّة لأبي الحسن النّدوي، والدّراسات القرآنيّة لمحمد قطب، والتّصوير الفنيّ في القرآن، وفي ظلال القرآن الكريم، ومشاهد القيامة في القرآن لسيد قب، وإعجاز القرآن لمصطفى صادق الرّافعيّ، والإعجاز البيانيّ للقرآن لعائشة عبد الرحمن بنت الشّاطئ، وترجمة القرآن لمحمّد مصطفى المراغيّ، والظّاهرة القرآنيّة لمالك بن نبيّ، ونظرات في القرآن لمحمد الغزالي، والصّبر في القرآن، والعقل والعلم في القرآن للشيخ القرضاوي، ومعجم الدّراسات القرآنيّة لابتسام مرهون الصّفار، والمنهل الخالد لمحمد المبارك الذي صبغه بالتّوجيه الأدبيّ وإبراز مواطن الجمال في الأسلوب القرآنيّ، وغيرها من الدّراسات التي حاولت التّجديد في البحث القرآنيّ الحديث.

يقول الشّيخ مناع القطّان: "ولم يكن نصيب علوم القرآن من التّأليف في عصر النّهضة الحديثة أقلّ من العلوم الأخرى، فقد اتجه المتّصلون بحركة الفكر الإسلاميّ اتجاهًا سديدًا في معالجة الموضوعات القرآنيّة بأسلوب العصر".

1 – نموذج النّبأ العظيم:

عنوان الكتاب: النّبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم للدكتور محمّد عبد الله درّاز. والكتاب ككلّ هو تجربة فريدة في هذا المجال لما يشمله من أراء فكريّة وعلميّة بديعة وقد سُبغت بأسلوب سهل ممتع يصل إلى قلب القارئ وعقله في يسر وانسيابيّة، وهي التي يؤكدها المؤلف رحمه الله تعالى، في المقدّمة فيصف كتابه أنّه لا حديث يبدأ من نقطة الصّفر، فلا يتطلب من قارئه انضواءَه تحت راية معيّنة، ولا

اعتناقاً لمذهب معين، ولا يفترض فيه تخصصاً في ثقافة معيّنة، ولا حصولاً على مؤهل معين، وإنّما يناشد القارئ فقط أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء، إلا من فطرة سليمة ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق.

ولهذا تكمن أهميّة الكتاب في أنّ مؤلفه استطاع أن يثبت بالأدلّة العقليّة والتّاريخيّة والحاليّة بأنّ القرآن كلام الله، وأنّه يستحيل أن يكون مكذوبا أو مختلقا أو محرفا، ما يجعل القارئ يشعر بأنّه أمام مشروع عقليّ ضخم لا يجد أمامه إلا التّسليم بقوّة أدلّته وصرامة منهجيته، فهو بحق من أبدع ما كتبه المعاصرون، ومن أقوى ما يؤسس القناعة بصدق القرآن، ومن أشدّ ما يبدّد الشّكوك حول مصدره وصدقه.

وقد قسّم الأستاذ محمّد عبد الله درّاز كتابه إلى قسمين أساسيين، اختصّ القسم الأوّل بالرّد على شبهة أنّ القرآن ليس بوحيّ سماويّ، أمّا المحور الثّانيّ فتناول فيه الإعجاز اللّغويّ والبيانيّ الذي يعدّ خير دليل على أنّه وحيّ وليس بكلام بشر، فكان هذا القسم تطبيقاً عملياً للقسم الأوّل، فتكلم عن الإعجاز اللّغوي وما يكتنفه من شبهات دحضها بالأدلّة العقليّة قبل النّقليّة.

بقي أن نعلم أخيراً، أن الكتاب بشكله المطبوع يدلّ على أن المؤلف لم يُكتب له من العمر كي يتمّ كتابه، حيث إن ثمّة عناوين ذكرها المؤلف في مقدّمة كتابه كان ينوي الكتابة فيها، كموضوع الإعجاز العلميّ في القرآن، والإعجاز الإصلاحيّ كما سماه. وجاء في تضاعيف كلامه في الكتاب أنّه يريد أن يتحدث عن القرآن فيما بين سورة وسورة، وعن القرآن جملة. وقد جاء الكتاب خالياً مما أشار إليه المؤلف.

2 – نموذج التّحرير والتّنوير

عنوان الكتاب: تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمؤلفه الشيخ محمّد الطّاهر بن عاشور شيخ جامعة الزّيتونة بتونس، هذا الكتاب هو محصّلة خمسين عامًا من العمل، حيث وضع فيه مؤلفه نظرته التّجديديّة والإصلاحيّة، وتميّز هذا التّفسير بالاهتمام بالجوانب البلاغيّة للقرآن، وعدم الاتّكال كلّيةً على التّراث العلميّ للتّفسير، حيث ينتقد الطّاهر بن عاشور الكثير من المفسرين، لأنّهم اعتمدوا بحسب رأيه على من سبقوهم دون إضافة قيمة علميّة تذكر، وقد قال في هذا الصّدد: "لأنّهم توهموا أن ما خالف النّقل عن السّابقين إخراج للقرآن عمّا أراد الله به"؛ فأصبحت كتب التّفسير عالة على كلام الأقدمين، ولا همّ للمفسّر إلا جمع الأقوال، وبهذه النّظرة أصبح التّفسير «تسجيلا يقيد به فهم القرآن ويضيق به معناه».

ولعل نظرة التّجديد الإصلاحيّة في التّفسير تتّفق مع المدرسة الإصلاحيّة التي كان من روادها الإمام محمد عبده الذي رأى أن أفضل مفسر للقرآن الكريم هو الزّمن، وهو ما يشير إلى معان تجديديّة،

ويتيح للأفهام والعقول المتعاقبة الغوص في معانيّ القرآن. وكان لتفاعل الطّاهر بن عاشور الإيجابيّ مع القرآن الكريم أثره البالغ في عقل الشّيخ الذي اتسعت آفاقه فأدرك مقاصد الكتاب الحكيم وألمّ بأهدافه وأغراضه، مما كان سببا في فهمه لمقاصد الشّريعة الإسلاميّة التي وضع فيها أهم كتبه بعد التّحرير والتّنوير وهو كتاب «مقاصد الشريعة».

ولهذا يعدّ "التّحرير والتّنوير" من التّفسير، وهو العنوان الذي اختصره الشيخ بن عاشور في التّمهيد لكتابه الذي نشرته في تونس الدّار التّونسية للنّشر عام 1984 في ثلاثين جزءا تحت عنوان: "تفسير التّحرير والتّنوير"، فهو من أهمّ التّفاسير التي يرجع إليها المختصّون، واستطاع مؤلفه من خلاله أن يضع نفسه بين أبرز علماء تفسير القرآن، وهو من أبرز تفاسير العصر الحديث التي كُتبتْ على وَفْقِ نظرية النّظم عند الجرجاني.

ورغم ظهور حركة التّجديد في تلك الدّراسات المتأخرة لتواكب روح العصر، إلا أنّها بقيت وفيّة للنهج المتبع عبر العصور السّابقة، وبهذا لم ينقطع البحث في الدّراسات القرآنيّة منذ بدئه وإلى زماننا هذا، وهو ما يعكس مقدار عناية الأمة بالقرآن الكريم، والحاجة الدّائمة إلى مؤلفات توضّح تأريخ النّصّ القرآنيّ، وتكشف عن وجوه إعجازه، وتبيّن ما يتضمّنه من الحكمة ومعالم الهداية التي تتطلّع إليها البشريّة أفرادا وجماعات في جميع العصور.

المحاضرة الثّالثة

ملامح الدّراسات القرآنيّة الحديثة

هناك العديد من الملامح التي تصبغ الدّراسات القرآنيّة الحديثة، نذكر منها:

1 – كثرة الدّراسات والبحوث في المجال القرآنيّ:

من خلال عبارة الدّراسات والبحوث يفهم القارئ المدلول الواسع لها حيث تشمل كلّ ما يتصل بالقرآن الكريم من دراسات، فيدخل في ذلك التّفسير وعلومه، والقراءات، والرّسم، والإعجاز، واللّغة القرآنيّة، والموضوعات القرآنيّة، والقراءات والتأويلات للنّصّ القرآنيّ، والمسائل القرآنيّة المستجدّة، وما يتعلّق بالشّبهات المثارة حول القرآن الكريم والردود عليها، إلى غير ذلك، ولهذا فالدّراسات التي تدور حول القرآن الكريم في القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين كثيرة ومتنوّعة ومتعدّدة وقد نشطت نشاطا كبيرا، بحيث تناولت جوانب عدّة ومختلفة في نوعية دراستها.

فمن تلك الدّراسات والأبحاث؛ دراسات المتخصّصين في المجال القرآنيّ بشتّى تخصّصاتهم. ومن تلك الدّراسات والأبحاث الرّسائل الجامعيّة المختلفة، وخاصّة المتعلّقة بتخصّصات الدّراسات القرآنيّة.

ومن تلك الدّراسات والأبحاث الدّراسات الأدبية واللّغوية التي بنت مقاربتها البحثيّة على بنية النّصّ القرآنيّ، وما أكثر تلك الدّراسات في مختلف الجامعات من طرف الطّلبة والباحثين سواء في المذكرات والرّسائل أو في النّدوات والمؤتمرات والمقالات.

ومن تلك الدّراسات ما يتعلّق بمجموعة من التخصّصات كأصحاب الاجتماع والنفس والتّاريخ والتّربية والطّب والفلك... وغيرهم من أصحاب التّخصّصات المختلفة الذين كان لهم نصيب من الدّراسات القرآنيّة فيما يتعلّق بتخصّصاتهم.

ومن تلك الدّراسات والأبحاث دراسات الحداثيّين بمختلف مشاربهم ومناهجهم. ناهيك عمّا انتجه غير المسلمين في الدّراسات القرآنيّة كالمستشرقين المحدثين وغيرهم.

فمثل هذه الدّراسات وغيرها لا يحصيها إلّا المعجم المتخصّص أو الكشاف الذي من خلاله تدوّن تلك الدّراسات وتفهرس فهرسة مبوّبة ومتخصّصة ليسهل تناولها والتّعاطي معها.

ونعطي نموذجا لمجال واحد لكثرة الدّراسات والأبحاث القرآنيّة الحديثة، يتعلّق هذا النّموذج بالإعجاز القرآنيّ، فإن كان الإعجاز موضوعا قديما إلّا أنّه أعيد طرحه من جديد وبقوة في الدّراسات الحديثة وتوسّع مجاله، لذا خصّص بالدّراسة والبحث ضمن الدّراسات القرآنيّة الموسّعة، وأفرد بالدّراسة كذلك، نذكر من ذلك:

إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية لمصطفى صادق الرّافعي. الإعجاز القرآنيّ؛ وجوهه.. وأسراره، عبد الغنيّ محمّد سعد بركة. مفهوم الإعجاز القرآنيّ حتى القرن السّادس الهجريّ، والمباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، لأحمد جمال العمري. الإعجاز القرآني في دراسة السابقين، عبد الكريم الخطيب. من أوجه الإعجاز العلميّ للقرآن في عالم النّبات، قطب فرغلي والسّيد زيدان. في قضية الإعجاز القرآنيّ وأثرها في تدوين البلاغة العربيّة، عبد العزيز عبد المعطى عرفة. المعجزة الكبرى – القرآن – محمّد أبو زهرة. المعجزة الخالدة معجزة، حسن ضياء الدين. القرآن محمّد متولي الشّعراويّ. معجزة القرآن الكريم رشاد محمّد خليفة. معجزة القرآن نعمت صدقي. المعجزة القرآنيّة، لمحمّد حسن هيتو. فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي. وجوه من الإعجاز القرآني، مصطفى الدّبّاغ. القرآن وإعجازه العلميّ محمّد إسماعيل إبراهيم. خلق الإنسان بين الطّب والقرآن محمّد على البار. إعجاز القرآن الكريم، فضل حسن. إعجاز القرآن في خلق الإنسان محمّد كمال عبد العزيز. الإعجاز الطّبيّ في القرآن الكريم، والإعجاز العلميّ في القرآن الكريم السّيد الجميلي. من إعجاز القرآن .. وليس الذكر كالأنثى، محمّد عثمان الخشت. الإعجاز البيانيّ للقرآن، عائشة عبد الرحمن. دراسات جديدة في الإعجاز القرآن، عبد العظيم إبراهيم محمّد المطعني. مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم. الإعجاز العلميّ في القرآن لسامي بن أحمد الموصلي. الإسلام يتحدى لوحيد الدّين خان. القرآن وعلوم الأرض محمّد سميح عافية. القرآن والعلوم الحديثة لإبراهيم فوّاز عراجي. عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم محمّد السّيد جبريل. عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم حسن عبد الفتاح أحمد. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مع آيات الله في السّماء والأرض لحسن أبو العينين. إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض محمّد محمود إبراهيم. ، الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة عبد الله المصلح. موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة، محمّد راتب النّابلسيّ. موسوعة الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم والسّنّة المطهرة، ليوسف الحاج أحمد. الإعجاز العدديّ للقرآن الكريم عبد الرزاق نوفل. التّفسير العلميّ للآيات الكونيّة في القرآن، حنفي أحمد. الإعجاز العلميّ إلى أين؟ مقالات تقويميّة للإعجاز العلميّ، مساعد بن سليمان بن ناصر الطّيار... وغيرها.

هذه بعض دراسات الإعجاز القرآنيّ على أنحاء متعدّدة، منها ما انفرد بالحديث عن الإعجاز واختصّ به، ومنها ما تناوله في أحد فصوله، ومنها ما كان تأريخا له، ومنها ما تناول الوجوه بالبيان أو بالنّقد، ومنها ما كان عاما في دراسته الإعجاز، أو ما كان مختصا بوجه منها.

2 – محافظة النّصّ القرآنيّ على مرجعيّته:

من الملامح المهمّة للنّصّ القرآنيّ في ظلّ الدّراسات القرآنيّة الحديثة أنّه حافظ على مرجعيّته وقدسيّته، فالقرآن الكريم كان ولا يزال وسيظل إلى آخر الزمان نبعا فيّاضا لشتى العلوم الدّينيّة والدّنيويّة، لا ينقطع مدده ولا يتوقف عطاؤه ولا تنقضي عجائبه، ويكشف لكلّ من يتعمّق في بحثه، ويتوفّر على دراسته بإخلاص وتجرّد الأسرار تلو الأسرار. ومن هنا كانت عناية المسلمين به على مرّ الزّمان عناية لم يحظ بها كتاب سماويّ آخر في أيّ دين من الأديان. ولا عجب في ذلك. فقد تكفّل الله سبحانه وتعالى بحفظه حين قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. الحجر: 9.

ومن أجل ذلك ظلّ النّصّ القرآنيّ منذ نزل بعيدا عن التّحريف مبرأ من التّبديل والتّغيير. ويجد المرء النّصّ القرآنيّ ذاته دون تغيير حرف أو حركة لدى جميع الفرق الإسلاميّة مهما تباعدت مسافات الخلاف بينها. فهذه الفرق قد تختلف ربما في كلّ شيء إلّا في الإجماع على النّصّ القرآنيّ الذي يجده الإنسان كما هو حتى لدى الفرق المنشقّة. ينظر محمّد حمدي زقزوق: الموسوعة القرآنيّة المتخصّصة، مطابع التّجارية قليوب مصر، المقدّمة، ص: ب.

ورغم الهجمات التي تعرّض لها القرآن الكريم – قديما وحديثا – ومع القراءات والتّأويلات التي حاولت تغريبه وتفكيكه ونزع قداسته إلّا أنّ النّص القرآنيّ احتفظ بمكانته المرجعية في المنظومة الثّقافيّة العربيّة رغم طبيعة التّحولات التي عرفتها المجتمعات في علاقتها بالمقدّس طيلة الفترة الحديثة.

3 – تعدّد وتطوّر المناهج في دراسة النّصّ القرآنيّ:

لقد حظي النّصّ القرآنيّ بعناية متميّزة من علمائنا منذ بداية دراسته، ومن أخصّ صور تلك العناية أنّ الباحثين وجهوا جهودهم في قراءته وتجلية دلالات ألفاظه، ومن أجل ذلك وضعوا منهجا رصينا في التّعامل معه ليسلم من دخيل الآراء والمناهج، وتصان مقاصده وهداياته ودلالاته.

وأمّا في العصر الحديث وفي ظل التّغيّر الحاصل في المناهج والمصادر وتقارب الثّقافات العالميّة؛ بدأ النّصّ القرآنيّ يُقرأ بإجراءات أدائية مختلفة ومناهج متباينة من خارج نطاق التّداول الإسلامي، متجاوزة بذلك لكلّ ما تعارفت عليه الأمّة في تعاملها مع كتاب ربها من جهة الأصول والقواعد والضوابط وغيرها؛ لأنّ تلك المناهج والإجراءات ترعرعت في كنف واقع معروف بمخالفاته للموروث الأثري، حيث سعت تلك المناهج إلى تحقيق قطيعة معرفيّة مع القراءات التّراثيّة التّأسيسيّة أو التّجديديّة.

ولهذا شهدت الدّراسات القرآنية الحديثة في العالم العربيّ والغربيّ تطورًا كبيرًا في مناهجها واتّجاهاتها ومنطلقاتها المنهجية الموظَّفة لدراسة النّصّ القرآنيّ، وهذا التّطوُّر الواضح يُحتِّم على الباحثين متابعته،

ومعرفة واقعه وطبيعة اشتغاله، وأهمّ قضاياه المعاصرة المطروحة في ساحة الدّراسات القرآنيّة. وسوف نتكلم عن تلك المناهج واتجاهاتها في محاضرات قادمة بحول الله.

4 – تنوّع وتعدّد الاتّجاهات في الدّراسات القرآنيّة:

المطلع على الاتّجاهات الحديثة الغربيّة في الدّراسات القرآنيّة يجدها متنوّعة ومتعدّدة المشارب بسبب اختلاف النّظريات واتجاهاتها في الدّرس الغربيّ، وعندما وفدت لبلادنا العربيّة والإسلاميّة وطُبّقت على النّصّ القرآنيّ حملت معها تلك الفوارق والاختلافات، فنتج عن ذلك دخول دراسات قرآنيّة جديدة إلى السّاحة الفكريّة من غير المختصّين عادة في العلوم القرآنيّة؛ كالأدباء والمهندسين والأطبّاء والاجتماعيّين والفلاسفة والمختصّين في علوم التّربية والاجتماع واللّسانيّات... وهم ليسوا بالضّرورة من خريجيّ العلوم الإسلاميّة.

وعلى ذلك فإنّ الاهتمام الواضح بالدّراسات القرآنية في العصر الحديث من غير المختصّين يراد منه توطد قناعة لدينا مفادها اعتبار كلَّ غثّ وسمين يصادفنا في كتابات هؤلاء والقبول بتصنيفاتهم في مختلف فنون العلم، تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمان: "لا أحد يحجّر على أيّ إنسان في أن يفهم القرآن كما يشاء، ولكن المحنة أن يؤلَّف فيه من ليسوا من أهل الاختصاص، وتروج في البيئة الإسلاميّة أقاويل وتأويلات مقحمة على القرآن نصّاً وروحاً، لا يعرف لها فقهاء العربيّة والإسلام والمتخصّصون في القرآن، سنداً ولا دليلاً، وإنّما تستند إلى ملتقطات من معارف المحدثين، في التّشريح وعلم الأجنّة ورياضيات الفلك وبيولوجيا القمر.. والتّكنولوجيا. . . و. . . وطالما نبّه علماء الدّراسات القرآنيّة إلى ما ينبغي لكلّ دارس يتعرّض لشيء منها، من اختصاص بالعربيّة وفقه لأساليب كلامها، وإطلاع على طرق المتكلّمين، وأصول الدّين". وعليه فالتّخصص ثمّ الالتزام به في التّدوين والكتابة سيضمن مرتبة مقبولة من الموضوعية في الطّرح والنّتيجة على حد سواء.

5 – ظهور الأبحاث الجديدة والمتنوّعة:

ومن الملامح المهمّة للنّصّ القرآنيّ في ظلّ الدّراسات القرآنيّة الحديثة ظهور الدّراسات والأبحاث الجديدة والمتنوّعة، والتي منها: الدّراسات في المفردة القرآنيّة، ودراسات في فقه السّنن القرآنيّة، والدّراسات المقاصديّة، ودراسات تحليل الخطاب القرآنيّ، ودراسات تحليل المفهومات القرآنيّة، والدّراسات في أصول التّفسير وقواعده، وقضايا التّأويل، ومناهج المفسرين، والتّفسير الموضوعيّ... وغيرها من الدّراسات الحديثة.

ونختم في آخر هذه المحاضرة بسؤال مفاده: هل نحن مقبلون على ثورة علمية في الدّراسات القرآنيّة؟

سيردُ هذا السؤال ربما للمتتبّعين لما كُتب من الأبحاث والدّراسات القرآنية خلال العقود الأخيرة؛ إذ نقف على نتاج كبير لم يسبق أن ظهر مثله في مدّة زمنيّة مماثلة من قبل، كما أننا لأوّل مرّة أمام تعدد منهجيّ يخرج عن المناهج التّقليدية المألوفة في التّفسير ودراسات علوم القرآن، إضافة إلى ذلك نجد أنفسنا أيضاً أمام استخدام لمناهج أجنبية وافدة جديدة ومتنوّعة لم تنبت في أرض المعرفة الإسلاميّة وثقافتها الخصبة، ثمّ إن هذا النّتاج الجديد من الأبحاث والدّراسات أسهم فيه غير المسلمين (المستشرقون) بشكل واضح، وذلك بغض النّظر عن تقييم ما قدَّموه.

المحاضرة الرّابعة

أهمّ اتّجاهات البحث الغربيّ حول القرآن الكريم (1)

في هذه المحاضرة سيدور حديثنا حول أهمّ الاتّجاهات البحثيّة الغربيّة المتعلّقة بالقرآن الكريم، وذلك لما لتلك الاتجاهات من تأثير وأثر على الدّراسات القرآنيّة الحديثة، وما أفرزته من نتاج في هذا المجال كان له أثره حتى على الكتابات العربيّة والاسلاميّة في هذا الشأن.

فالمطّلع على حركة البحث الغربيّ في مجال الدّراسات القرآنيّة يلحظ أنّ حقل الدّراسات القرآنيّة في الغرب دائم التّطور والتّغير، لا سيّما في العقود الأخيرة، ويحظى يومًا بعد آخر بمزيد من الاهتمام؛ حيث أُحدثت لهذا الغرض مؤسسات ومشاريع بحثيّة ومؤتمرات ومجلّات، وأنجزت حوله موسوعات وسلاسل كتب متخصّصة، وتخضع تلك الدّراسات لمراجعات مستمرّة، ومن ذلك الشّروع بإعادة تحرير (الموسوعة القرآنيّة) الشّهيرة والتي كانت تعكس مزيجًا من اتجاهات الدّراسات القرآنيّة الغربيّة، وهي نفسها خضعت من قبلُ لنقدٍ غربي، أمّا من حيث المنهج فلا تزال تتنازع الدّراسات القرآنيّة الغربيّة اتجاهات مختلفة حتى وُصفت بالفوضى، لكنّها مع ذلك يجمعها العمل الأكاديمي الذي يُنتظم في جامعات ومؤسسات عريقة على امتداد أوروبا وأمريكا، بل أصبحت (الدّراسات القرآنيّة) موضوعًا عالميًّا له رابطة دوليّة تجمع المختصّين من جميع أنحاء العالم متجاوزة المنهجيات والأديان.

وبعد هذه المقدّمة التّمهيديّة سنذكر أهمّ الاتّجاهات البحثيّة الغربيّة في حقل الدّراسات القرآنيّة، والتي منها:

1 – الاتجاه الذي يقول بتحديد الأصول والتّقاليد التي اعتمد عليها القرآن، وقد ارتكز هذا الاتجاه على قضيّة تحديد الأصول والتّقاليد التي اعتمد عليها القرآن، هذه هي القضيّة المركزيّة التي اهتمّ بها آباء الدّراسات الاستشراقيّة، وقد اختلفت إجاباتهم عليها، ولا تزال نفسها حاضرة بشكل مباشر أو غير مباشر في معظم الدّراسات الحديثة، وقد تنوعت المنهجيات في مقاربتها، كما اختلفت الأساليب والفرضيات والموضوعات التي تناولها المهتمون بالدّراسات القرآنيّة حديثًا، والتي أصبح لها تخصّصات فرعيّة كثيرة.

هذا الاتجاه يبني فكرته حول مصادر القرآن الكريم، أي على أنّ القرآن الكريم قد اعتمد على غيره سواء من حيث الاعتماد على الأعراف والتقاليد والبيئة والواقع السائد، أو من حيث اعتماده على الكتب والدّيانات الأخرى التي عاشت في الجزيرة العربيّة أو خالطها العرب، وأصحاب هذا الاتجاه كثر، منهم: الفرنسي أرناست رنان، وجوستاف لوبون، ورجيس بلاشير، وكارلايل، وسبرنغر، وغولدزيهر،

وباول كراوس، وبرناد لويس، ودوزي، وماكسم رودينسون، وهوبرت جريم، ورودينسون لديث، وهامِلْتُون جب، وتيودور نولدكه، وغيرهم.

وهؤلاء اختلفوا في نوع المصدر، فبعضهم يزعم بأن القرآن مأخوذ من اليهود والنّصارى الذين كانوا يعيشون في مكّة، ويستدلوا على هذا بالقصص القرآنيّة زاعمين أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذها منهم.

ومنهم من يزعم بأنه صلّى الله عليه وسلم تعلّم القرآن من الرّاهب بحيرة الذي كان يسكن في ديره ببُصرى. فزعموا أن الرّسول كان يذهب للتجارة إلى الشّام ويمرّ ببُصرى ويتعلّم شيئا من القرآن من بَحيرى، حتى زعموا أنّ بَحيرى هو الذي كتب القرآن.

ومنهم من يزعم بأن الرّسول أخذ القرآن من أهل الكتاب في سياحاته، فمثلا في صغره ذهب إلى بني سعد، ومع بني سعد ذهب إلى سوق عكاظ مرّة واحدة، وذهب إلى يثرب مع أمّه لزيارة قبر أبيه وبقي هنالك بضعة شهور، وذهب إلى الطّائف بسبب التّداوي لمرض في عينه، وذهب إلى الشّام مرّتين وإلى اليمن مرّة أو مرّتين وساح في شرق جزيرة العرب، فهذه السّياحات كلّها صحيحة وثابتة لذا اعتقد هؤلاء أن رسول الله كان سائحا ذكيا لذلك أخذ أشياء كثيرة من البلدان الغنيّة بالفكر والثّقافة النّصرانيّة أو اليهوديّة.

واتجاه يزعم بأنّه صلّى الله عليه وسلم أخذ عن الحنفاء حيث كان في الحجاز قبل الإسلام حنفاء يؤمنون بالله وحده ولا يدينون اليهوديّة ولا النّصرانيّة. كانوا يدينون دين إبراهيم وينتظرون نبيا يُحيّي هذا الدّين من جديد. ومع ذلك كانوا قليلا يمكن تعدادهم. فهم يؤلفون فرقة لا تنتسب إلى الوثنيّة، وأفكارهم مبهمة. يزعم أرناست رنان أنّهم ميثلون فكرة عصرهم وثقافته.

وهناك مزاعم أخرى تقول بأنّ القرآن مأخوذ من الشّعراء، وبعضها أنّه مأخوذ من الصّابئين، وبعضها بأنّ القرآن مأخوذ من الفكر السّائد في زمنه، ومنهم من يزعم بأنّ تعاليم القرآن أُخذت من عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وبعضهم يزعم بأنّه صلّى الله عليه وسلم ينسب كلامه إلى الله تعالى لتحقيق آماله.

وغيرها من الآراء في هذا الاتجاه التي تأثرت على إثرها الدّراسات القرآنيّة الغربيّة واختلفت بسبب اختلاف المصدر القرآنيّ الذي زعموه.

2 – الاتجاه القائل بأنّ القرآن متأخر عن عصر النّبوّة، وأنّه مركّب من تقاليد مختلفة ومتعدّدة، وقد ظهر هذا الاتجاه في السّبعينيّات مع جون وانسبرو حيث يرى أنّ القرآن متأخر عن عصر النّبوّة، وأنّه مركّب من تقاليد مختلفة ومتعدّدة، لا سيما التّراث اليهوديّ والمسيحيّ، وقد اتسع هذا الاتجاه مع المدرسة

التّنقيحيّة التي ترى أنّ القرآن نصٌّ متطور وخضع إلى التّنقيح قبل أن يستقرّ، ورائد هذه الأطروحة كتاب (الهاجريون) لمايكل كوك وباتريشيا كرونه، فرغم أنّ بعض الغربيّين قد عدّها أطروحة جذريّة وفاصلة في الدّراسات الغربيّة عن الإسلام، رأى آخرون أنّ المخطوطات القرآنيّة المكتشفة تنسف هذه الأطروحة.

فهذا المشروع الذي يرى بأنّ القرآن متأخر عن عصر النّبوّة تبنّته المدرسة التّنقيحيّة للدّراسات الإسلاميّة، تسمى كذلك مدرسة المراجعين أو التّنقيحيّة، حيث تمثّل هذه المدرسة اتجاهًا متزايد الأهميّة في أبحاث القرآن والحديث والسّيرة، خاصّة منذ سبعينيات القرن الماضي، باستخدام المنهج التّاريخي النّقدي، الذي يُعدّ المنهج العلميّ القياسيّ لتحليل النّصوص التّاريخيّة، تقدم أيضا تحول نموذج فكري في الدّراسات الإسلاميّة، فأدّى تطبيق هذه المناهج العلميّة في العديد من الحالات إلى مراجعة التّفسيرات والعقائد والتّفسيرات التي سبق أن قدّمها العلماء الإسلاميّون وعلماء الدّراسات الإسلاميّة، ممّا دفع إلى انتقاد ممثلي ونتائج المنهج التّاريخيّ النّقديّ. بالمقابل اتُّهمت أجزاء من معطيات الدّراسات الإسلاميّة التّقليديّة بعدم العمل بشكل علميّ وإيلاء أهميّة كبيرة للموروث الأدبيّ الإسلاميّ التّقليديّ.

ومن رواد هذه الاتجاه – كما قلنا – مايكل كوك وباتريشيا كرونه، فمن خلال التّصوّرات المذكورة في كتابهم (الهاجريون) ، فإنّهم يعتقدون بأنّ الفتوحات العربيّة (يريدون الإسلاميّة) للعراق والشّام ومصر حركة يهوديّة مسيحانيّة شَكّلت فيما بعد ما عُرف باسم الخلافة والتي احتلت القبائل العربيّة المهاجرة من شبه الجزيرة العربيّة مركز الصّدارة فيها، وذلك ضمن محاولة يهوديّة – عربيّة لاستعادة الأرض الموعودة من الامبراطوريّة البيزنطيّة، وكذلك فإنّ القرآن وفق هذا التّصور هو كتاب من القرن الثّامن الميلادي مستخلص بالأساس من مصادر يهوديّة – مسيحيّة وشرق أوسطيّة. بينما كان النبيّ محمّد بشيراً سابقاً لعمر المخلِّص وفق التّصور اليهوديّ.

كما يُعَدّ كتاب جون وانسبرو «الدّراسات القرآنية: مصادر ومناهج تفسير النّصوص المقدّسة»، أحد أهمّ الكتب التي أثَّرت في مسار الدّرس الغربيّ للقرآن في النّصف الثّاني من القرن العشرين، والتي شكّلت الجزء الأكبر من الأسئلة المعاصرة لهذا الدّرس، من حيث هو البداية الأساسيّة لبروز «الاتجاه التّنقيحيّ» في دراسة تاريخ الإسلام والقرآن.

3 – الاتجاه الذي يحاول مَوْضَعَة القرآن في العصور التي تسبق الإسلام، فهذا الاتجاه من الدّراسات القرآنيّة يحاول أصحابه مَوْضَعَة القرآن في العصور الكلاسيكيّة المتأخّرة، والتي تسبق الإسلام، وتشير هذه الأطروحة إلى أنّ القرآن يعتمد على اليهوديّة والنّصرانيّة، وعلى التّقاليد الوثنيّة أو غيرها، دون التّأكيد على تأثير أيٍّ منها واستبعاد الأخرى، كما لا يلحّ على النّقل المباشر، ويركز على الاستيحاء من

ثقافات الشّرق التي كانت سائدة، ويضع القرآن على قدم المساواة مع الكتب الأخرى، ورائدة هذا الاتجاه أنجيليكا نويفرت.

فأنجيليكا نويفرت من أشهر الباحثين الألمان والأوروبيّين المعاصرين في الدّراسات القرآنيّة والإسلاميّة. فهي أستاذ الدّراسات السّاميّة والعربيّة في جامعة برلين الحرّة، درست الدّراسات السّاميّة والعربيّة والفيلولوجيّة في جامعات برلين وميونيخ وطهران، عملت كأستاذ ومحاضر في عدد من الجامعات، مثل: برلين وميونيخ وبامبرغ، كما عملت كأستاذ زائر في بعض الجامعات مثل: جامعة عمّان بالأردن، وجامعة عين شمس بالقاهرة.

أشرفت على عدد من المشاريع العلميّة، منها مشروع كوربس كورانيكوم.ولها عدد من الكتابات والدّراسات في مجال القرآن ودراساته، من أهمّها: القرآن كنصّ من العصور القديمة المتأخّرة، مقاربة أوروبيّة. وقد تُرجِم للإنجليزيّة فصدر بعنوان دراسات حول تركيب السّور المكيّة. وعندها أيضا النّصّ المقدّس، الشّعر، وصناعة المجتمع: قراءة القرآن كنصّ أدبيّ. وهو مجموعة من دراساتها المترجمة للإنجليزيّة.

كما يُعَدّ مفهوم (العصور القديمة المتأخّرة) من المفاهيم المتداولة ضمن العدّة المفاهيميّة للمستشرقين المعاصرين، خصوصًا ذوي الاهتمام بالبحث في السيّاق التّاريخيّ للقرآن، هذه الورقة لنويفرت تطرح الدّلالة المعرفيّة لهذا المفهوم، وتمتحن نجاعته في قراءة السيّاق التّاريخيّ للقرآن، عبر جدل مع الأطروحات الكلاسيكيّة والتّنقيحيّة حول النّصّ، وتاريخ معانيه، وتاريخ تلقّيه.

وفي نفس هذا الاتجاه صدر في عام 2000 كتاب كريستوف لوكسمبورغ عن الأصول السّريانيّة والآراميّة للقرآن، مدّعيًا أنّها تفكّ رموزه، فكان عمله تطويرًا لاتجاه في الدّراسات القرآنيّة يحاول إعادة اكتشاف القرآن وصياغته من جديد، وهذا الاتجاه ظلّ هاجسًا غير مباشر حتى عند نقاد لوكسمبورغ الذين إن اختلفوا معه في التّطبيقات إلّا أنّهم لا يختلفون في الفرضيّة التي قد تجد إجابة من نوع آخر.

ونستكمل بقيّة الاتجاهات في المحاضرة القادمة بحول الله تعالى.

المحاضرة الخامسة

أهمّ اتّجاهات البحث الغربيّ حول القرآن الكريم (2)

نعود للحديث مجددا عن أهمّ اتّجاهات البحث الغربيّ حول القرآن الكريم، وقد تكلّمنا في المحاضرة السّابقة عن الاتجاهات التّاليّة:

- الاتجاه الذي يقول بتحديد الأصول والتّقاليد التي اعتمد عليها القرآن.
- والاتجاه القائل بأنّ القرآن مركّب من تقاليد مختلفة ومتعدّدة، ومتأخر عن عصر النّبوّة.
- والاتجاه الذي يحاول مَوْضَعَة القرآن في العصور التي تسبق الإسلام.

أمّا في هذه المحاضرة فنبدأ بـ:

4 – الاتجاه القائل بتأريخ القرآن، وهو الآخر اتجاه قائم بذاته، ويرجع إلى الجهود المبكّرة لإنجاز ترتيب تاريخيّ للسّور القرآنيّة، والذي كان رائده تيودور نولدكه بالاعتماد على النّقد التّاريخيّ والنّصّيّ أو ما يسمى الفيلولوجيا، ولئن كانت أعمال نويفرت عن السّور المكيّة ذات طبيعة أدبيّة إلّا أنّها تتنزّل أيضًا في سياق إعادة النّظر في التّرتيب التّاريخيّ للسّور استنادًا إلى الأسلوب، إضافة إلى أعمال آخرين في تأريخ السّور، يمكن عدّها جميعًا في خط نقد وتطوير التّسلسل الزّمنيّ الذي وضعه نولدكه، لكنّها لم تقدِّم بديلًا عنه.

ويعدّ تيودور نولدكه مؤسس الدّراسات النّقديّة عن القرآن الكريم متأثرا بمنهجيّة دي ساسي وإيفالد. وهو صاحب تأثير كبير على المستشرقين من بعده في دراسة القرآن الكريم. ويظهر التّأثر بعلم نقد العهد القديم عند نولدكه في دراسته للقرآن الكريم في الأعمال التّالية:

رسالته للدكتوراه، وعنواها: أصل وتركيب سور القرآن (1856 – 1860)، وقد نال عليها جائزة مجمع الكتابات والآداب في باريس (1858) ويظهر من عنوان الرّسالة تأثير المنهج في نقد العهد القديم. وهو منهج يقوم على دراسة المصدر أو المصادر، والبنية الأدبيّة للنّصّ. ومن الواضح أنّ اهتمام نولدكه بتطبيق منهج نقد العهد القديم على القرآن الكريم قد بدأ منذ إعداد رسالته للدكتوراه وقد عُيِّن فيما بعد أستاذا لنقد التّوراة في جامعة كييل (1864) فجمع بهذا بين التّخصّص في نقد التّوراة ونقد القرآن.

وقد أعاد نولدكه النّظر في رسالته للدكتوراه مرّتين، فأعاد كتابتها من أجل الحصول على جائزة مجمع الكتابات والآداب في باريس، ثمّ أعاد النّظر فيها مرّة ثانيّة، وقام بترجمتها من الفرنسيّة إلى الألمانيّة معطيّا لها عنوانا جديدا يربطها أكثر بالمنهج في نقد العهد القديم، فقد حمل الكتاب المنشور في جوتنجن عام (1860) عنوان: تاريخ النّصّ القرآنيّ، من خلال البحث في تاريخ السّور والآيات القرآنيّة.

وقد اشتغل على هذا الكتاب المصدر في موضوعه عدد من المستشرقين، فقد جدّده المستشرق شوالي بعد تحقيقه والتّعليق عليه في مجلدين نشر ليبزج (1909- 1919)، كما قام المستشرق برجش تراسر والمستشرق بريتسل بنشر الجزء الثّالث منه في ليبزج (1926 - 1935)، ثمّ أعاد طبعه منقّحا عام (1938). وهكذا يمكن القول بأنّ هذا الكتاب استغرق ما يزيد على ثمانين عاما من العمل المتواصل بين تأليف وزيادة، وتنقيح، وتصحيح وترجمة، وذلك منذ إعداده كرسالة دكتوراه عام (1856) وحتى نشر برجش تراسر وبرتسل للجزء الثّالث منه عام (1938) مع ملاحظة التّطور الذي أُدخل على العنوان، من عنوان الرّسالة: أصل وتركيب سور القرآن، إلى عنوان الكتاب: تاريخ النّصّ القرآنيّ.

ويشير العنوان المختار للكتاب إلى تطبيق تام لمنهج نقد العهد القديم على القرآن الكريم، فمدرسة نقد العهد القديم اهتمت بمسألة الوصول إلى تاريخ نصوص العهد القديم بداية بتاريخ النّصّ التّوراتيّ، وانطلاقا إلى تحديد تواريخٍ لنصوص العهد القديم الأخرى. وقد تحول كتاب نولدكه هذا إلى مصدر أساسيّ لكلّ الدّراسات الاستشراقيّة عن القرآن الكريم.

5 – اتجاه العناية بالمخطوطات القرآنيّة، وهو من الاتجاهات الأكثر تطورًا في الدّراسات القرآنيّة التي عُنِيت بالمخطوطات القرآنيّة المبكّرة، ومِن أبرزِ المهتمين به الفرنسيّ ديروش، وتُعَدّ دراسة المخطوطات جزءًا أساسيًّا من المشروع الألمانيّ كوربوس كورآنيكم، والذي يُعَدّ إحياءً لمشروع قديم بدأه بيرجستر، ويهدف إلى إنجاز نسخة نقدية من القرآن، استنادًا إلى المخطوطات والمصادر القديمة والقراءات، ومثّل اكتشاف مصحف صنعاء ومصاحف أخرى وتطبيق تقنيات تأريخ المخطوط عليها بابًا لآفاقٍ جديدة من العمل على المخطوطات ولا يزال مستمرًّا، على أنّ المشروع يجمع بين فرضيات مختلفة في الدّراسات القرآنيّة؛ منها البحث عن المطابقة النّصيّة بين القرآن وغيره، ومقارنة لغة القرآن وموضوعاته مع كلّ الاحتمالات الممكنة ممّا كان في محيط النّصّ من أديان وثقافات ولغات، وتفسير النّصّ على أساسها، وصولًا إلى إنجاز نصّ محقّق للقرآن، وإنجاز تفسير وترجمة للقرآن تأخذ بالاعتبار المعطيات التي تمّ جمعها.

وتعود جذور العناية الاستشراقيّة بمخطوطات المصاحف إلى القرن الثّامن عشر الميلادي، حيث ظهر هذا الاشتغال العلميّ أوّل ما ظهر مع اللاهوتيّ والمستشرق الدنماركيّ جاكوب كرستيان جورج أدلر (1756- 1834م). كان أدلر مهتمًّا بالكتابات الكوفيَّة، ودرسَ عددًا من القِطَع القرآنيّة القديمة المحفوظة في المكتبة الملكيّة بكوبنهاجن. وقد كان الاهتمام في الدوائر الأكاديميّة آنذاك منصبًّا على (الباليوغرافيا)؛ وهي علم دراسة الخطوط القديمة وتطوّرها استنادًا إلى الوثائق الماديَّة. فكانت إرهاصات العناية بالمصاحف المخطوطة في الغرب المسيحيّ من باب التّعرّف على الخطوط العربيّة القديمة

وتطوّرها عبر الأزمان والأعصار. ثمّ وقع تطورٌ نوعيّ في منتصف القرن التّاسع عشر رافقَ حركة نقل المخطوطات القرآنيّة إلى المكتبات الأوربيّة من قِبَل الرحّالة والمستشرقين الفرنسيّين والألمان والإنجليز الذين كانوا ينشطون في البلاد الإسلاميّة كمصر وبلاد الشّام والعراق؛ فنظَّمَت الأكاديميّة الفرنسيّة للنقوش والآداب عام 1858م مسابقة لأفضل عمل نقديّ يؤلّف في تاريخ القرآن، وألحت إلى الرّقوق القرآنيّة القديمة التي استحوذتْ عليها المكتبة الملكيّة (المكتبة الوطنيّة الفرنسيّة اليوم) من تركِة المستشرق ونائب القنصل الفرنسيّ في القاهرة آسلان دو شرفيل عام 1833م (وقد استولى عليها الأخير من جامع عمرو بن العاص بالفسطاط). وقد شارك في هذه المسابقة تيودور نولدكه الذي قدّم عام 1860م أطروحته المشهورة (تاريخ القرآن) والتي تحوّلت لاحقًا إلى كتاب من عدّة أجزاء شارك في تحريره تلميذه شفالي، وأوتو برتزلز، وبرجستراسر. وفي النّصف الأوّل من القرن العشرين، اشتغل عدد من المستشرقين – منهم برتزل وبرجستراسير وجيفري– على تحقيق ونشر مجموعة من كتب علم الرّسم والقراءات كالمقنع للدّانيّ والمصاحف للسجستانيّ والمحتسب لابن جنّي وغيرها، كما قاموا بتصوير آلاف الأوراق من المصاحف العتيقة المحفوظة في عددٍ من خزائن الكتب في شمال أفريقيا وأوروبا. وكانوا يأملون بعملهم هذا إصدار نسخة نقديّة للقرآن الكريم بدعم أكاديميّة العلوم البافاريّة بميونخ (وهو ما يعرف بمشروع الحواشي النقديّة). لكنّ الظروف السّياسيّة حالت دون تمكّنهم من إنجاز هذا العمل على الوجه الذي يرضيهم، وتوقّف هذا المشروع تمامًا بحلول الحرب العالميّة الثّانيّة، ورثاه المستشرقون وتحسّروا عليه. وقد ضَعُفَ الاهتمام الاستشراقيّ بالمصاحف العتيقة بعد عام 1945م بوفاة أساطين هذا المجال، ثمّ عاود الظهور مجددًا بعد اكتشاف مصاحف الجامع الكبير بصنعاء عام 1973، فأشرقتْ شمس هذه الدّراسات من جديد، وصارت اليوم جزءًا من الدّراسات القرآنيّة الغربيّة، وهو ما نلحظه من هذا الحضور البارز في الأوراق الأكاديميّة المنشورة في المجلات العلميّة الغربيّة ابتداءً من عام 2010م مرورًا بالنّدوات والمؤتمرات والورشات التي تقام سنويًّا حول موضوع (كوديكولوجيا وباليوغرافيا المصاحف العتيقة)، وانتهاءً بالمشاريع العلميّة الكثيرة التي يموّلها الاتحاد الأوروبيّ، وتأسيس كراسي للقرآن الكريم في المؤسّسات والمعاهد الأوروبيّة والأمريكيّة.

ولا مانع أن نعطي لمحة عن مخطوطات مصاحف صنعاء التي ذكرناها خلال الكلام السّابق، حيث عُثر في سقف الجامع الكبير في صنعاء، أثناء ترميمه في عام 1385هـ - 1965م على ما يقارب الـ 4500 مخطوط، إضافة إلى 12000 رق تحوي 800 مصحفا، من بينها مائة مصحف مزخرف، وترجع جميعا إلى القرون الهجريّة الخمسة الأولى، وقد أعيدت إلى خزائنها، قبل أن يُعاد استخراجها عام 1392هـ – 1972م.

وقد طلبت الحكومة اليمنيّة من الحكومة الألمانيّة مساعدتها بالعناية بالمخطوطات وترميمها، فأوفدت ألمانيا اثنين من أساتذة جامعة سارلاند الألمانيّة، وهما جيرد يوسف بوئن المتخصّص بالخطّ والرّسم العربيّ، وزميله غراف فون بوتمر المتخصّص في تاريخ الفن الإسلاميّ، وبدأ العمل من عام 1984م إلى عام 1997م، وقاما بترميم ما يقارب 15000 صفحة قرآنيّة، وأنهيا عملهما بتصوير(35000) صورة من الوثائق التي اصطحباها معهما إلى ألمانيا لدراستها.

وفي شهر يناير عام 1999م كتب موظف أمريكيّ يعمل في مجال الإغاثة يدعى توبي لستر مقالاً بعنوان: ''ما القرآن'' في مجلة ''أتلانتيك مونثلي'' المرموقة، زعم فيه هذا الكاتب الهاوي (غير المتخصّص) وجود اختلاف بين المخطوطات الصنعانيّة والنّصّ القرآنيّ المتداول، وأن الباحثين الألمانيين لديهما ما يخفيانه، فتصدّى له أولهما؛ جيرد بوئن في رسالة بعث بها إلى القاضي إسماعيل الأكوع، أكدّ فيها تطابق المخطوطات الصنعانيّة مع النّصّ القرآنيّ المتداول عند المسلمين.

وكتب جيرد بوئن: "وأمّا الحقيقة فتفتخر اليمن بكنز فريد في العالم، وهو بقايا أقدم المصاحف في العالم.. هذه البقايا ترجع إلى القرن الأوّل للهجرة.. لا تختلف المصاحف الصنعانيّة عن غيرها الموجودة في متاحف العالم ودور كتبه إلّا في تفاصيل لا تمسّ القرآن كنصّ مقروء، وإنّما الاختلاف في الكتابة فقط، هذه الظاهرة معروفة حتّى في القرآن المطبوع في القاهرة، حيث ورد كتابة (إبرهيم) على جانب [أي بدلاً من] (ابرهم)، (قرآن) على جانب (قرن)".

ولهذا ينبغي على الباحث العربيّ المسلم أن يُدرك حقيقتين مهمّتين:

أوّلا – البحوث الاستشراقية الغربية لم تتجاوز السّردية الإسلاميّة، بل إنّها اليوم تعيش مرحلة استعادة الثّقة بها تدريجيًّا، وهذا ما أكَّدَ عليه موتزكي في مقاله ذائع الصّيت (جمع القرآن: إعادة تقيّيم المقاربات الغربيّة في ضوء التّطوّرات المنهجيّة الحديثة) المنشور عام 2001م، بقوله: «...لكن الآراء الغربيّة التي تدّعي أنّها تستبدل بالسّرديَّة الإسلاميّة سردية أكثر منطقيّة، وأكثر موثوقيّة من النّاحيّة التّاريخيّة؛ من الواضح أنّها بعيدة كلّ البعد عما يدّعيه أصحابها لأنفسهم». في المقابل، تميل البحوث الأخيرة إلى قبول «النّواة الأساسيّة» لروايات جمع القرآن في عهد الخليفة عثمان بن عفان.

ثانيًا – البحوث الحديثة التي أُجريت على المخطوطات القرآنيّة المبكّرة – بخاصّة المدعومة بالتّحليلات الفيزيائيّة التي أعادت عشرات الرقوق القرآنيّة العتيقة إلى القرن الأوّل الهجريّ – عزّزت من مصداقيّة الرّواية الإسلاميّة وأحرجت التيّار التّنقيحيّ وعادتْ به خطوات إلى الخلف. ويَخْلُص مايكل ماركس وتوبياس واكيم في دراستهما المنشورة عام 2019م بعنوان: (تأريخ المخطوطات القرآنيّة باستخدام الكربون المشع) إلى أنّ نتائج التّحليلات الكربونيّة التي أُخْضِعَتْ لها تلك القِطَع – تقوِّض

فرضية الجمع المتأخّر للقرآن وظهور الإسلام في القرن الثّامن عِوضًا عن القرن السّابع الميلادي. وهو الأمر الذي أكّد عليه أيضًا فرانسوا ديروش؛ إذْ يرى أنّ الأدلّة الجديدة التي قدّمتها لنا المخطوطات القرآنيّة المبكّرة – تُنهي سِجال الجمع المتأخّر للقرآن الذي أثارته المدرسة الشكوكيّة.

6 – الاتجاه اللغوي والأدبيّ، فالأوّل يمكن التّمثيل له بآرثر جفري الذي اعتنى بمفردات القرآن وأصولها الأجنبيّة، وقد قام منهجه على الخطوات التّالية:

الأولى: رصد معنى الكلمة الدّخيلة في عدد من كتب التّفسير القرآني (خاصّة تفاسير الطّبري والزّمخشريّ والبيضاويّ) ومن كتب علوم القرآن (خاصّة «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي).

والثّانيّة: تعيين معنى الكلمة لغةً في المعاجم العربيّة، مثل «لسان العرب» لابن منظور و«المعرّب» للجواليقي.

والثّالثة: ضبط أصول الكلمة موضوع الدّرس في السّريانيّة والآراميّة والعبريّة، وذلك بإثبات رسمها وتعيين دلالتها.

والاتجاه الأدبيّ أبرز من يمثله أعمال نويفرت على السّور القرآنيّة – تكلمنا عنه سابقا – وأعمال ميشيل كويبرس على البلاغة السّاميّة في السّور القرآنيّة، وآخرون.

ويتمثّل منهج ميشيل كويبرس، في:

أولًا: القدرة على تسييق الآيات القرآنيّة في مجالات دلاليّة أوسع تستطيع كشف معانٍ أكثر تماسكًا – وفقًا له – للآيات.

ثانيًا: القدرة على كشف التّناص بين النّصّ القرآنيّ وغيره من النّصوص المحيطة به والسّابقة.

ثالثًا: القدرة على استكشاف مستويات الآيات داخل فضاء النّصّ القرآنيّ، والتّفريق بين آيات محورية وأخرى فرعية، وهذا من شأنه ضبط عملية تفسير القرآن بالوقوف على المرتكزات المحورية للنّصّ.

كما أنّ هناك اتجاهات أخرى جزئيّة، منها التّيبولوجي، وهي العناية بالمطابقة المحتملة بين القرآن ونصوص أخرى سابقة على سبيل الاستعادة والتّوظيف في موضوعات شبيهة، وهو اتجاه قديم في الدّراسات القرآنيّة الغربيّة تمّ تطبيقه في دراسة القصص القرآنيّ عن الأنبياء، وهناك استعادة لهذا الاتجاه مؤخرًا. وهناك أيضًا اتجاه العناية بالخطاب ذي الطّبيعة الشّفويّة في القرآن.

المحاضرة السّادسة

دوافع الاهتمام بالدّراسات القرآنيّة الحديثة

في هذه المحاضرة نتكلّم عن الدّوافع التي أدّت للاهتمام بالدّراسات القرآنيّة في العصر الحديث بالنّسبة لعالمنا العربيّ والاسلاميّ، والتي نمحورها في العناصر التّاليّة:

أولا – قضيّة النّهضة:

النهضة التي أصبحت الشاغل الأكبر للفكر الإسلامي خلال القرن ونصف القرن الماضيين، حيث بات مسلماً أن مشروع النّهضة الإسلاميّ يمرّ من قناة الإصلاح الدّينيّ، وكون القرآن الكريم المصدر الأوّل لكلّ فكر إسلامي؛ فإنّ العودة إليه هي حاجة معرفيّة وتاريخيّة لتجاوز ثقل الثّقافة التّاريخيّة وفهُومها التي تفصل بيننا وبين النّصّ الكريم، وتعوق "الفهم الصحيح" للدّين، ومن ثمَّ تعوق نهضته.

ثمّ إنّ دراسة القرآن وتفسيره هي "تقليد" سارت عليه كلّ حركات الإصلاح الدّيني والسّياسيّ في تاريخ الحضارة الإسلاميّة، فكلّ تفكير بالنّهضة لا بدّ له أن يتخذ موقفاً تجاه النّصّ الكريم، وفهماً يسوِّغ رؤيته للحاضر والمستقبل.

ولذا فلا ريب أنّ القرآن الكريم المصدر الأوّل والأهم للعلم والمعرفة حيث كونه البيان المصوّر والمفصّل لكلّ ما يتعلّق بالكون والإنسان والدّنيا والآخرة... والمجيب عن كلّ الإشكالات والتّساؤلات التي تواجه فكر الإنسان وعقله، والمثير لكلّ القضايا التي تؤهل فكر الإنسان لاكتشاف السّنن. فالقرآن الكريم ما نزل إلّا لحسم الهُويّة المعرفيّة للإنسان.

كما أنّ القرآن الكريم مصدر للمنهج والمعرفة ومقومات الشّهود الحضاريّ والعمرانيّ، وإنّ استدعاء القرآن الكريم في إطار واقع عالمي متغيِّر بوعي جديد أمر ضروري لا مفرّ منه، وهذه الضّرورة تكمن أهميتها في محاولتها تصحيح كثير من المفاهيم المتعلّقة بالتّعامل مع القرآن الكريم في الموضوعات الإسلاميّة كخطوة أولى يؤسَّس بموجبها الوعيّ المنهجيّ الإسلاميّ المعاصر وإعادة التّعامل مع القرآن كمصدر منهجيّ ومعرفيّ للعلوم الاجتماعيّة والطّبيعيّة سيجعل هذه العلوم قادرة على مدّ الحياة الإنسانيّة بما يخرجها من أزماتها، وسيعيد الارتباط بين هذه العلوم والقيم ويربطها بمقاصد الحق وغائية الخلق.

حيث أنّ القرآن الكريم يمدّنا بالمعارف اليقينيّة حول ما وراء هذا الوجود وما يتجاوز أبعاد الزّمان والمكان، فالمعلومات التي يقدَّمها القرآن الكريم صادقة ويقينيّة، والمصادر الأخرى مهما كانت فائدتها فهي ليست مصادر يقينيّة ولا يمكن أن تقدَّم إجابات واضحة ودقيقة للتّساؤلات المطروحة.

كما يمدّنا القرآن الكريم بمعارف يقينيّة حول كليات السّنن الإلهيّة السّارية في هذا الوجود خصوصاً ما اتّصل منها بالإنسان المكرَّم المستهدف بهداية الوحي الكريم. كما يستوعب القرآن الكريم في تفصيلاته حقيقة الإنسان في أصله وخلقه وتكوينه وحركته على الأرض ومصيره المستقبليّ.

وفي هذا الإطار نذكر بعض الكتابات التي جعلت من مادّة القرآن الكريم محورها في الحديث عن النّهضة وما يتعلق بها، وما أكثر الكتابات في ذلك؛ ولكن نذكر ما تيسّر منها لبيان هذا الدّافع لا غير، فمن تلك الدّراسات:

1 – كتاب: دور القرآن الكريم في بناء نهضة الأمة ووحدتها، لمجموعة من الباحثين. والكتاب هو نتاج عدد من (مقالات) مؤتمر أقامه معهد المعارف الحكمية في بيروت (تشرين الأول، 2012م) بحضور جمع من الباحثين من دول مختلفة تحت عنوان "دور القرآن الكريم في بناء نهضة الأمة ووحدتها".

2 – كتاب دور القرآن الكريم والسنة النبوية في نهضة الأمة الإسلاميّة للدكتور أسعد نمر بوصل.

فكتاب «دَوْر القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة في نهضة الأمَّة الإسلاميَّة» هو تشخيصٌ للداء الذي أمرض الأمة الإسلامية، حيث يتعرض لأسباب المحنة التي أصابت المسلمين في الشرق والغرب، في محاولة لوصف الدواء بالعودة إلى الإسلام الحق، إسلام القرآن الكريم، كما طبقه ومارسه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والصحابة، والتابعون، ومن والاهم، وعمل بعملهم، وسار على هديهم، لأن الإسلام الحق هو الذي نهض بهذه الأمة ووحدها بعد الفرقة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس.

3 – كتاب الخطاب القرآني القرآن مرجعية للخطاب النهضوي، للدكتور سعد كموني.

ينشغل د. سعد كموني بالعمل النهضوي العربي ويدفعه البحث عن سبب فشل مشروع النهضة، وفشل الأحزاب التي حملت لواء القوميّة العربية، إلى محاولة تقديم أفكار ربما تعيد الحيوية للعروبة كمشروع جامع لا غنى عنه من أجل النهضة.

4 – كتاب البوصلة القرآنية إبحار مختلف بحثا عن خريطة للنهضة، للدكتور أحمد خيري العمري.

فمضمون الكتاب يدور حول اختيار الخطاب القرآني للعقل غاية ووسيلة في آن واحد، ينبع من طبيعته الإعجازية أصلاً... فبينما اعتمدت باقي معجزات الرسل على (إعجاز) الحس والعقل، بأفعال خارقة للقوانين الطبيعية المادية، فإن إعجاز القرآن على العكس من ذلك يعتمد على إيقاظ العقل والنهوض به.

ثانيا – الحاجات المتزايدة للمعرفة الدّينيّة:

فالحاجات الدّينيّة تزايدت وبصفة كبيرة الشّيء الذي دفع للبحث عن المعرفة وطريقة عرضها ومقاربتها وفق التّطورات المتسارعة لإيقاع العصر الحديث وأطروحاته الفكريّة، كلّ ذلك اضطرّ المشتغلين في الإصلاح الدّيني للبحث عن مناهج جديدة قادرة على تقديم رؤية كلّية للقرآن وموضوعاته وتاريخه، وقادرة أيضاً على مساعدة المسلمين في مواجهة إشكالاته المعرفيّة من خلال تقديم تصورات متماسكة منطقياً في فهم القرآن، وعلى مدِّهم بالاطمئنان الكافي لخوض هذا العالم الجديد بقوة ودون خوف، بل الدّعوة إلى الإسلام والتّبشير بهديه بين العالمين في زمن حضارة الحداثة الغربيّة الجديدة.

وفي هذا نذكر بعض الدّراسات القرآنيّة الحديثة التي حاول أصحابها إعطاء التّصور القرآني لما استجدّ من تلك القضايا التي فرضت نفسها على واقع النّاس وأصبحوا بحاجة لمعرفة التّصور القرآني حولها، من ذلك:

- نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية، بإشراف الأستاذ الشيخ الشاهد محمد البوشيخي.
- دراسات في تفسير النص القرآني (التأويل والأفهوم القرآني)، مجموعة من المؤلفين.
- القراءات الحداثية للقرآن الكريم ومناهج نقد الكتاب المقدس، للأستاذ يوسف الكلام.
- أثر القرآن في سلوك المجتمع المسلم، للأستاذ عبد القدُّوس بن أسامة السَّامرائي.
- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بين الحقيقة والوهم، للأستاذ صالح عسكر.
- القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، للأستاذ سعيد بوعصاب.
- نحو موقف قرآني من النسخ دراسات قرآنية، للأستاذ طه جابر العلواني.
- سؤال المعاصرة والشرعية في قراءة النص القرآني، للأستاذ سعيد النّكر.
- القيم التّأسيسيّة للشّخصية القرآنيّة المعاصرة، للأستاذ إبراهيم الدّيب.
- ظاهرة النّصّ القرآنيّ تاريخ ومعاصرة، للأستاذ سامر إسلامبولي.
- التّأصيل النّظريّ للدّراسات الحضاريّة، للأستاذ السّيد عمر.
- دراسات في الفكر القرآني، للأستاذ رحيم السّاعدي.
- القرآن والعلم الحديث، للأستاذ عبد الرزاق نوفل.
- الفلسفة القرآنية، للأستاذ عبّاس محمود العقّاد.

وهذا قليل من كثير، فالدّراسات القرآنيّة التي تحدّثت أو عالجت القضايا المطروحة، أو التي حاولت مواكبة التّطور المعرفي الحاصل اليوم، وكذا الكلام القضايا المستجدة كثيرة جدا إلى جانب القضايا المختلفة المطروحة على السّاحة القرآنية في الوقت الحديث.

ثالثا – الدّراسات الاستشراقيّة:

الدّراسات الاستشراقيّة من الدّوافع الكبرى للدّراسات القرآنيّة الحديثة؛ فقد كانت الدّراسات الاستشراقيّة موظفة لأغراض إمبرياليّة؛ إذ نشأت أساساً – بصفتها فرعاً علمياً مستقلاً – لخدمة الاستعمار الغربي للعالم الإسلاميّ؛ وعندما انتهت الحقبة الكولنيالية (الاستعمارية) الأولى لم تعد عموماً كذلك، وبعد أن أصبحت فرعاً علمياً مستقلاً أفرزت كثيراً من الدّراسات الجادّة – وخصوصاً في مجال الدّراسات القرآنيّة – ذات الأهميّة الخاصّة لنا، ولكن الأهمّ في موضوع الدّراسات القرآنيّة الاستشراقيّة لأنّها جلبت إلى العالم الإسلاميّ مناهج جديدة في دراسة القرآن الكريم، وقدّمت خدمات جليلة للباحثين المختصّين في مجال الفهرسة والتّوثيق، ولكنّها في المقابل أيضاً جلبت معها كثيراً من الإشكالات والتّفسيرات الغريبة، بل و"المطاعن" الجديدة في القرآن، وقد كان لذلك كله أثراً مهمّاً في تحفيز الدّراسات القرآنيّة الحديثة.

ويندرج تحت الاتجاهات الاستشراقيّة في دراسة القرآن الحديثة أربعة اتجاهات رئيسة، وهي:

1- الاتجاه التّاريخي: يحاول وضع النصّ القرآني في إطار تاريخي.

2- الاتجاه التّأصيليّ: يحاول التأصيل للنصّ القرآني من خلال ردّه إلى نصوص الدينية الأخرى.

3- الاتجاه المقارن: يبحث في العلاقة بين قصص القرآن وقصص كتب اليهود والنصارى.

4- الاتجاه اللغوي: يُعنى بالتحليل اللغوي للنصّ القرآني، للوقوف على البناء الأدبي والأسلوبي له.

وأمّا العرب والمسلمين فمنهم من تابع الرّكب الغربي وتأثر به – وخاصّة العلمانيون والحداثيون – ومنهم من أخذ قلمه ليبيّن ويوضح ما أثير حول القرآن الكريم، أو يدافع ويردّ الشبهات عن السّاحة القرآنيّة، أو يجدد ويطوّر فيما يقتضيه التّطوير والتّجديد في مجال الدّراسات القرآنيّة.

والكتابات والدّراسات العربيّة كثيرة ومتنوعة ومتعدّدة المتعلّقة بهذا الدّافع، منها: إشكاليّة تأثر القرآن الكريم بالأناجيل في الفكر الاستشراقيّ الحديث، لعبد الحكيم بن الشّريف فرحات. أهداف التّرجمات الاستشراقية لمعاني القرآن الكريم ودوافعها، لمحمّد أشرف علي المليباري. آثار مدرسة الاستشراق الألمانية في الدّراسات القرآنيّة عرض وتحليل، لناصر المنيع. القرآن الكريم في الدّراسات الاستشراقيّة، دراسة تقويميّة نقديّة، لمحمود علي سرائب. الشّبه الاستشراقيّة في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، لمحمّد عابد الجابري. الدّراسات الاستشراقيّة للقرآن الكريم في رؤية إسلاميّة، لإدريس مقبول. الدّراسات القرآنيّة في الاستشراق السّويدي لعصام هادي كاظم السّعيد. إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلاميّ الحديث، لمالك بن نبي. دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، لمحمّد الأمين الشّنقيطي. دفاعا عن القرآن ضد منتقديه، لعبد الرحمن بدوي. متشابه القرآن لعدنان زرزور. وغيرها من الكتابات في هذا.

رابعا – التّوجه نحو الدّراسة الأنثربولوجيّة:

ومن الدّوافع التي دفعت للدّراسات القرآنيّة الحديثة التوجه الغربي نحو الدّراسة الأنثربولوجيّة، حيث تأثر بها الدّرس اللغويّ، ومنه الكتب المقدّسة، ومنها الدّراسات القرآنيّة.

والأنثربولوجيا: هي العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظلّ ثقافة معينة. يعني أن علم الإنسان هو علم الإنسان طبيعيًّا واجتماعيًّا وحضاريًّا.

مع انطلاقتها في الستينات والسبعينات من القرن العشرين، حيث أخذت تتبلور مبادئها وأهدافها، كانت ثمّة محاولات جادّة لتوصيفها كعلم خاص، وبالتالي وضع تقسيمات لها وفروع من أجل تحقيق المنهجية التطبيقية من جهة، والشمولية البحثية التكاملية من جهة أخرى. حيث قسّم علم الأنثروبولوجيا الى أربعة، هي: الأنثروبولوجيا الطبيعية، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الأنثروبولوجيا الحضارية، الأنثروبولوجيا التطبيقية. ومن اتّجاهاتها المعاصرة، ما يلي:

1 – الاتّجاه التاريخي الانتشاري: يعتمد على أنّ نشأة الحضارة الإنسانية كلّها ترجع إلى مصدر (مجتمع) واحد، ومنه انتشرت إلى أماكن أخرى في العالم. واعتمد هذا الاتّجاه على مبدأين اثنين:

أولهما: أنّ الاتّصال بين الشعوب المختلفة، كان بفعل الاحتكاك الثقافي الحضاري. وثانيهما: عملية انتشار بعض المكوّنات (الخصائص) الحضارية أو كلّها، من مصادرها الأصلية إلى المجتمعات الأخرى، سواء بالرحلات التجارية أو بالكشوف أو بالحروب والاستعمار. وهذان المبدآن متكاملان في دراسة الظواهر الثقافية، ويمكن من خلالهما تفسير التباين الحضاري بين الشعوب.

2 – الاتّجاه التاريخي النفسي: ظهرت فكرة توسيع المفهوم التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية، وذلك بسبب من تأثّروا بنتائج علم النفس، ولا سيّما سيغموند فرويد الذي عاش ما بين (1852–1939) وتلامذته، الذين رأوا أنّه بالإمكان فهم الثقافة من خلال التاريخ، مع الاستعانة ببعض مفهومات علم النفس وطرائقه التحليلية، وهذا ما كان له أثر كبير في الاتّجاه نحو الكشف عن الأنماط المختلفة للثقافات الإنسانية.

ويعتبر كتاب "أنماط الثقافة" الذي نشرته بيند كيت عام 1932، البداية الحقيقية لبلورة الاتّجاه التاريخي النفسي في دراسة الثقافات الإنسانية. حيث أوضحت الدراسة أنّه من الضرورة النظرة إلى الثقافات في صورتها الإجمالية، لأنّ لكلّ ثقافة مركز خاص يميزها عن الثقافات الأخرى، كما تعدّ دراسة بيند كيت، بعنوان: "الكريزنتيموم والسيف، عام 1946" من أهمّ الدراسات في هذا الاتّجاه، حيث بحثت في علاقة الثقافة بالشخصيّة اليابانية.

خامسا – التّوجه نحو الدّراسة الفيلولوجيا التّاريخيّة:

الفيلولوجيا من الدّوافع التي دفعت للدّراسات القرآنيّة الحديثة، ويراد بها: "علم يبحث عن أصول الكلمات واشتقاقها"، وقد عرّفت الفيلولوجيا بعلم اللغة المقارن أو علم النصوص القديمة، من حيث القاعدة ومعاني المفردات وما يتصل بذلك من شروح ونقد وإشارات تاريخية وجغرافية... بذلك يدل اصطلاح الفيلولوجيا في الغرب قديمًا على الاعتناء بالنصوص القديمة دراسة ونقدًا وتحقيقًا وضبطًا... ابتداءً بالنصوص اليونانية واللاتينية فالشرقية (العبرية والفارسية...) ثم العربية.

ومجال الفيلولوجيا يتحدد في قسمين كما ذكر الدكتور تمام حسان في كتابه الأصول:

القسم الأول – اختص بفك الرموز القديمة والاهتمام بالآثار، أيّ فك رموز الكتابات القديمة التي يعثر عليها الباحثون في حقل الآثار مرقومة على الحجارة أو جدران المباني في صورة نصوص بلغات مجهولة أو لغات معلومة ولكن الرموز مجهولة.

والقسم الثاني – اهتم بتحقيق النصوص والمخطوطات بغية نشرها، أيّ تحقيق الوثائق والمخطوطات القديمة بغية نشرها والانتفاع بها في النشاط العلمي، وفي الدراسات التاريخية والأثرية.. ومن ذلك أيضًا ما نعرفه في وقتنا الحاضر من تحقيق المخطوطات وطبعها، على نحو ما يقوم به طلاب الدراسات العليا في أقسام اللغة العربية بالجامعات من نشر التراث برسائلهم العلمية.

والدراسات الغربية المعنية بالإسلام الآن تتحول شيئاً فشيئاً نحو الدراسة الأنثربولوجية، فيما يبدو توجه لتصنيف الحضارة الإسلامية ضمن مفهوم "الثقافة" الخاصة بالمجتمعات غير الغربية، ودراسات القرآن الجديدة الآن إذا لم تكن تدرس في إطار الفيلولوجيا التاريخية (مثل دراسة كريستوف لوكسنبارغ عام 2000) فإنها تصب في توجه الدراسات الأنثربولوجية.

وفي الحقبة الحديثة أي منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم، حيث استمرت حركة النشر الفيلولوجي للنصوص العربية من قبل الأوربيين، وإن تراجعت في أواخر القرن العشرين، حيث عكف المحققون العرب على إخراج تراثهم ابتداء من النصف الأول من القرن العشرين، واطردت الجهود العربية بانحسار نظيرتها الأوربية، ورغم ذلك استمرت هذه النشرات في إسبانيا وهولندا في أوائل القرن 21م بعناية مؤسسات ومراكز وعلمية مثل: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية في مدريد، وهيئة المخطوطات الإسلامية في كامبردج، ومؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن، ودار بريل للنشر في لايدن بهولندا. من ثمرات هذه الحركة العلمية، إنتاج عدد كبير من التحقيقات والنشرات النقدية للتراثين الغربي والعربي خاصة، في علوم الدين والأدب واللغة والتاريخ والجغرافيا والطب والفلك والحساب.

المحاضرة السّابعة

محاور الدّراسات القرآنيّة الحديثة

الأبحاث والدّراسات القرآنية الحديثة المختلفة والتي نتجت بسبب تأثير الظروف التي ذكرناها سباقا تركزت في المحاور التّالية:

الأول: توثيق القرآن ونقله (تاريخيّة القرآن).

يفيد لفظ تاريخيّة النسبة إلى التّاريخ، فعندما يوصف به الشّيء فإنّ ذلك يعني أنّ ذلك الشّيء له وجود حقيقيّ، أي أنّه وجد فعلا وجودا تاريخيّا يتحدّد بالزّمان والمكان، وليس مجرد وجود افتراضيّ أو أسطوريّ. وبهذا المعنى فالقرآن نصّ تاريخيّ، بمعنى أنّه وجد وجودا حقيقيا في زمن ومكان. وهو نفسه يؤكد ارتباطه بالزمان والمكان، فيقول تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا) ، هذا فضلا عن إشارته إلى أحداث تاريخية وقعت في عصره مثل (الم، غُلِبَتْ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ) ، والأمثلة كثيرة وهي كلها تؤكد تاريخية القرآن. الشيء الذي لا يسمح بتاتا بنسبة أي نوع من الوجود الأسطوري لهذا الكتاب.

لكن الذي ترمي إليه التّاريخيّة – في نظر الغربيين والحداثيين ومن على شاكلتهم – هي نزع القدسية عن القرآن الكريم، و تحويله إلى نص بشري متأثر بلغة أهله وثقافتهم وإبعاد قراءته عن تلك القراءة التقليدية التي قدسته ورفعته فوق مستوى البشر، وما دام قد ظهر في ذلك العصر فإنه لا يمكن أن ينجو من تأثير الواقع، هكذا هي النظرة التاريخية للقرآن الكريم عند هؤلاء.

جاء في المعجم الفلسفي في بيان دلالة التاريخية: "والتاريخية هي القول ان الأمور الحاضرة ناشئة عن التطور التاريخي، ويطلق هذا اللفظ أيضا على المذهب القائل أن اللغة، والحق، والأخلاق، ناشئة عن إبداع جماعي، لا شعوري، ولا إرادي، وإن هذه الأمور قد بلغت الآن نهايتها، وانك لا تستطيع أن تبدل نتائجها بالقصد ولا أن تفهمها على حقيقتها إلّا بدراسة تاريخها؛ ويرى أصحاب هذا المذهب أيضا أننا لا نستطيع أن نحكم على الأفكار والحوادث إلا بالنسبة الى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه لا بالنسبة الى قيمتها الذاتية لا غير، لأننا إذا نظرنا اليها من الناحية الذاتية فقط ربما وجدناها خاطئة أو منكرة، ولكننا إذا نسبناها الى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه وجدناها طبيعية وضرورية".

ومما ذكرنا فيما يتعلّق بتاريخيّة القرآن أو تاريخيّة النّصوص فإنّ لها بُعدان اثنان:

١ – تاريخيّة القرآن من حيث بِنيته، وكونه إفرازا ثقافيا لمجتمع معين أو بعبارة أوضح :كونه منتجا بشريا بعيدا عن التعالي والتقديس.

٢ – تاريخيّة القرآن من حيث أحكامه وتشريعاته أي :كونه استجابة لظروف وملابسات اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة.

وفيما يتعلّق بتوثيق القرآن (تاريخيّة القرآن) فإنّ من أوائل الدّراسات الفيلولوجيّة النّصيّة المقارنة للقرآن كانت عام 1856م للمؤلف تيودور نولدكه، بعنوان: "أصل وتركيب سور القرآن" والذي نشره بعدما أعاد النظر فيه وطوره عام 1880م بعنوان "تاريخ القرآن" وقد ترجم إلى العربية 2004م.

وفي العالم العربي تصب مثل جهود محمد أركون عموماً في قصد ما يسميه "أرخنة القرآن" وإعادته بشكل علمي إلى قاعدته البيئوية والعرقية اللّغوية والاجتماعية والسياسية الخاصة بحياة القبائل في مكة والمدينة في بداية القرن السابع الميلادي"، بدءاً من بحثه "نسبة القرآن إلى الله" 1969م، مروراً بكتابه "قراءات في القرآن" 1982م، وأخيراً كتابه "القرآن: من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني" 2001م.

يقول محمد أركون في بحثه عن مدلول التاريخية وتطوره: "إن مصطلح التاريخية يتعلق بصياغة علمية، مستخدمة خصوصًا من قبل الفلاسفة الوجوديين للتحدث عن الامتياز الخاص الذي يمتلكه الإنسان في إنتاج سلسلة من الأحداث والمؤسسات والأشياء الثقافية التي تشكل بمجموعها مصير البشرية".

ويندرج في هذا السّياق دراسة نصر حامد أبو زيد في كتابه "مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن" 1990م، حيث يقول في كتابه نقد الخطاب الديني: "الواقع إذن هو الأصل ولا سبيل لإهداره، من الواقع تكوَّن النص، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن خلال حركته بفعالية البشر تتجدد دلالته، فالواقع أولا والواقع ثانيا والواقع أخيرا".

وبإهمال الواقع الذي تكَوَّن منه النص القرآني سنكون أمام كارثة حقيقية كما يقول أبو زيد، قال: إهدار الواقع لحساب نص جامد ثابت المعنى والدلالة يحول كليهما إلى أسطورة، يتحول النص إلى أسطورة عن طريق إهدار بعده الإنساني والتركيز على بعده الغيبي.

إذن فالقرآن حسب أبي زيد تتداخل فيه مؤثرات معاصرة له كثيرة: الدين القرشي السائد، وشعر الصعاليك، وثقافة الكهانة والسحر، والحكايات الأسطورية، ونصوص الديانات الأخرى كالتوراة والإنجيل. فالقرآن خليط من كل هذا. ولا حديث عند نصر أبي زيد عن الله والوحي وجبريل. فكل هذه المفاهيم تنتمي إلى الخطاب الميثي الأسطوري يتَرَفع الناقد الحديث عن التعريج عليها أو الحديث عنها كقوى غيبية متعالية تقف خلف القرآن.

الثاني: الدّلالة الكلّيّة للقرآن.

كثير هي المؤلفات في تراثنا التي خصّت المفردة القرآنية بالعناية، فقد أُحصِيَتْ من كتبِ مفردات القرآن وغريبه حتى عصر الراغب الأصفهاني في مطلع القرن الخامس الهجري نحو ستين كتابًا، ومع ذلك فهذا التراكم في المصنفات حول المفردات القرآنية كان يُنظر إليه في الغالب على أنه مجرد درس لغوي لألفاظ القرآن، فيتم التعامل معها بطريقة شكلية، لكن الدرس اللساني، والبنيوي منه بشكل خاص، أكّد على أهمية مفردات أيّ نص في الكشف عن دلالته وإبراز جوانب من معانيه، ومن هذا المدخل كان الاهتمام بدراسة المفردة القرآنية بوصفها مفتاحًا مركزيًّا لفهم الموضوع الذي تتصل به، وكذلك فهم تصورات كبرى تتصل بالمفهوم.

وفي صلب الدلالة الكلية جاء الاهتمام بدلالة المفردات القرآنية باعتبارها مدخلاً في غاية الأهمية لهذا التحليل الكلي، فقد اعتمدت معظم الدراسات على المفردة كأداة لتحليل الخطاب القرآني، تارةً تحت تأثير المنهجيات الحديثة في اللسانيات، مثل دراسة توشيهيكو إيزوتسو"الله والإنسان: دلاليات تصور العالم القرآني" (باللغة الإنكليزية 1963م)، وعائشة بنت الشاطئ في "التفسير البياني للقرآن الكريم" مطلع الستينيات، وشكري عياد في دراسته "يوم الدين والحساب: دراسات قرآنية" 1984م، ومحمد أركون أيضاً في كتابه "القرآن" 2001م، ودراسة تلميذته جاكلين الشابِّي بالفرنسية، بعنوان "رب القبائل: إسلام محمد" 1997م.

وثمة دراسات أخرى عمدت بسبب أهميتها المفهومية، مثل دراسة أبي الأعلى المودودي "المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله، الرب، العبادة، الدين" 1941م، ومحمد أبي القاسم حاج حمد في كتابه، مشروعه "العالمية الإسلامية الثانية: جدل الغيب والإنسان والطبيعة" 1979م، ومحمد شحرور في كتابه "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة" 1990م وفي مؤلفاته الأخرى التي كان آخرها "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي: "فقه المرأة" 2001م، إذ إن مفاهيم القرآن الجديدة حملتها مصطلحات خاصة هي في المحصلة مفردات قرآنية، وقد أبانت معظم تلك البحوث والدراسات عن خطورة الدور الذي تحتله المفردة في دراسة القرآن وتحليل خطابه.

لقد بدأت المفردة القرآنية تصبح محط اهتمام متزايد وتستحوذ على عناية مختلف المناهج الحديثة في دراسة القرآن الكريم منذ بدأ الالتفات إليها في الأربعينيات من القرن المنصرم، لقدرتها على تحليل كليَّاني للخطاب القرآني؛ وقد حدا هذا الأمر بمعظم الباحثين لاستثمارها واتخاذها أساساً لدراسة الخطاب القرآني تحت تأثير بواعثهم المختلفة، وقد أثبتت المناهج الحديثة – في معظمها – نجاعتها في الكشف عن وجوه للخطاب ربما ليس بمقدور غيرها الكشف عنها، وأبان بعضها عن قدرة فائقة في تحليل

الخطاب القرآني عبر مفرداته، خصوصاً تلك المناهج التي استفادت من المعرفة الغربية الحديثة وجمعت معها المعرفة التراثية مع وعيها لخصائص نص منتسب إلى الإله المتعال المفارق للوضع الإنساني.

ومن هذا المجال فقد دعت الحاجة إلى وضع فهارس لألفاظ القرآن، تسهل للباحثين الوصول إلى كلمات القرآن بيسر، فاتجهت عناية المسلمين والمستشرقين في الثلث الأول من القرن العشرين إلى وضع فهارس لألفاظ القرآن وأطراف آياته، ومن تلك المؤلفات في هذا المجال: نجوم الفرقان في أطراف القرآن: للمستشرق الألماني فلوجل، فتح الرحمن: تأليف علي زاده فيض الله الحسني، مفتاح كنوز الرحمن: لكاظم بك، كتاب ترتيب زيبا: لحافظ محمود الورداري، معجم آيات القرآن: حسين نصار، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، وغيرها.

ففهارس ألفاظ القرآن توصل الباحث إلى موقع اللفظة في القرآن، وبعد ذلك عليه أن يبحث عن معناها في كتب اللغة وتفسير القرآن، لذا دعت الحاجة لوضع معاجم تدل على الألفاظ وتشرحها لتخفف على الباحث مشقّة البحث وتسهل عليه جمع المادة اللازمة للدراسة والتأليف، وكان العمل في هذا الاتجاه جماعياً، إذ اقترح الدكتور (محمّد حسين هيكل) عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، وضع معجم خاص بألفاظ القرآن، وكان ذلك في دورة المجمع السابقة في الجلسة الثانية لمؤتمر المجمع في /6/ محرم . 1360هـ . الموافق 2 فبراير سنة 1941م. وبعد بضع دورات وجلسات وفي عام 1949م، تشكلت لجنة من المجمع وبدؤوا بإعداد المعجم ضمن مراحل متعددة.

الثالث: إسلامية المعرفة والإعجاز العلمي والعددي.

ما زال في بدايته، ولم يتبلور منهج واضح له بعد، وعدم وجود منهج له خاصّة في دراسته للقرآن الكريم بأساليب حسابية وإحصائية – كما في الإعجاز العددي– أو مقارنات بالظواهر الكونية – كما في الإعجاز العلمي – أو محاولة وضع تصور للمعرفة وعلوم تنطلق من القرآن والسنة – كما في إسلامية المعرفة – يمثل بذلك نهضة إسلامية علمية غير مسبوقة، فقط ينقصه تأصيل منهج متكامل هو المنهج الإسلامي العلمي الذى يضيف لذلك أصول الفقه والنّحو والبلاغة ومناهج التّفسير وغيره.

ويُعنى به المتخصّصون بالقرآن وعلومه، وهذا الحقل قد شهد تطورات مهمّة على مستوى الكمّ، وعلى مستوى الشّكل أيضًا، وذلك بفضل توسُّع الدّراسات العليا التي انتشرت خلال العقود الأخيرة، لكنّه لم يشهد تحولات نوعية إلّا في فروع جزئيّة، ولا تزال الدّراسات القرآنيّة بحاجة إلى الكثير من الجهود والتّحقيقات، والدّراسات المعمّقة، لكن معظم الجهود ضائعة لصالح التّكرار والأعمال الهامشيّة، ورغم وجود وعي بأهميّة درس كثير من القضايا ذات الأولويّة، إلا أنّ مشكلات منهجية تَحُول دون اقتحام عقبتها وتحقيقها.

أولا – الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم

نعطي لمحة موجزة على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

مُصطَلح الإعجاز العلمي حديث النشأة، ظَهَر في أوائل القرن الرابع عشر الهجري مع ظهور مصطلح التفسير العلمي، إلا أن العلماء السابقين كالإمام الغزالي والقاضي عياض وابن رشد الحفيد قد أشاروا إليه بعبارات تَتَضَمَّن معناه، وإن لم تكن صريحةً في التَّلَفُّظ به.

ولما كان مصطلح الإعجاز العلمي في القرآن ظهر في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، فقد ورد ذِكْرُه في المؤلفات التي تُعنى بتفسير القرآن الكريم، وبالتفسير العلمي للقرآن والحديث عن الآيات الكونية في القرآن، ولقد كان لذِكْرِه في مؤلفات التفسير العلمي للقرآن أثره البالغ في اختلاط أمره على الناس، فلم يُفَرق بينه وبين التفسير العلمي للقرآن؛ فأصبحتَ ترى كُتباً تحمل عنوان الإعجاز العلمي بينما مضمونها ومحتواها في التفسير العلمي، وظلَّ الأمرُ على ذلك حتى أنشأت الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة عام 1406هـ، فعرَّفت الإعجاز العلمي في القرآن والسنة تعريفاً ميَّزه عن التفسير العلمي، وقامت بإصدار مجلة تُعنى بأبحاث الإعجاز العلمي، بالإضافة إلى إصدار كتب ودوريات تهتم بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

جاء في مقدّمة توصيات المؤتمر الدولي الأوّل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، بأنّ الإعجاز العلميّ، هو: "تأكيد الكشوف الحديثة الثابتة والمستقرة، للحقائق الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية".

ويقول الدكتور زغلول النّجار ويُقصد به: "سبق هذا الكتاب العزيز بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم يتمكن العلم الكسبي من الوصول إلى فهم شيء منها إلا بعد قرون متطاولة من تنَزُّل القرآن الكريم ... وفي إثبات ذلك تأكيد أن القرآن الكريم هو كلام هذا الإله الخالق، وتصديق للنبي والرسول الخاتم صلّى الله عليه وسلّم في نبوته ورسالته، وفي تبليغه عن ربه".

وعرّفه الشّيخ عبد المجيد الزّنداني بقوله: "هو إخبار القرآن الكريم أو السُّنَّة بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول صلّى الله عليه وسلّم. وهذا مما يُظهر صدق الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم فيما أخبر عن ربه سبحانه".

وهناك أسباب دعت لظهور مصطلح، منها: ردَّة الفعل التي أحدثها الاتصال بأوروبا، وامتزاج الثقافة العربية الإسلامية التي كانت نائمة بالثقافة الأوربية الناضجة، وما بهر العلماء من علوم ومخترعات حديثة، فحاولوا أن يرجعوا إلى تراثهم الإسلامي العربي.

ثانيا – الإعجاز العددي في القرآن الكريم

الإعجاز العددي في القرآن يُقصد به ملاحظات الباحثين عما ورد في القرآن من التوازن بين أعداد الكلمات المتضادة والتكرارات والأرقام وأماكن الجمل أو الآيات وغير ذلك من الأدلة الرياضية المحسوسة.

وهو لحد الساعة لا يُعتبر علمًا معتمدًا من قبل علماء المسلمين، والبعض لا يحبذ استخدام الاعجاز العددي للدعوة إلى الإسلام كما يحدث مع الإعجاز العلمي، لأن الاعجاز العددي غير مبني على قواعد معينة، ويحذر بعض العلماء أيضا من الاعتماد على الجمل في إعطاء كل كلمة أو حرف رقم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتمد ذلك، ولأن أصل حساب الجمّل كان عند اليهود.

لكن المنشغلين به من الباحثين يرونه علما من العلوم وإن كان في بدايات نشأته، يقول الأستاذ عبد الدائم الكحيل: "الإعجاز العددي هو علم ناشئ لا يزال ينمو ويكبر ولكن ببطء! فقد نشأ نتيجة ملاحظات الباحثين عندما وجدوا أن كلمات القرآن تتكرر بطريقة غريبة وملفتة للانتباه".

ثمّ يوضح قائلا: "الإعجاز العددي علم جديد ولم يتم اعتماده بعد من قبل المشايخ والعلماء، ويحتاج لمزيد من البحث وبنظري فإن القرن الحادي والعشرين الذي نعيشه سيكون قرن الإعجاز العددي إن شاء الله. فالمشككون يسوقون الحجج الواهية ليشوهوا صورة الإسلام، وهناك من المسلمين من يرتد عن دينه اليوم، بسبب ضعف إيمانهم وعدم وجود حجة قوية لديهم تثبتهم على الحق.

ومع كل هذا يوضّح الطريقة التي تبنّاها في هذا النّوع من الإعجاز لحساب الأعداد القرآنية، فيقول: "إن الطريقة الجديدة التي كشف عنها البحث هي طريقة صف الأعداد بجانب بعضها، وهي طريقة رياضية علمية صحيحة، ومعقدّة وموجودة في القرآن وقد شاء الله أن نكتشفها في هذا العصر لتكون دليلاً مادياً ملموساً على صدق هذا القرآن، واستحالة الإتيان بمثله.

ومحور هذه الطريقة هو الرقم سبعة، وهذا الرقم له دلالات كثيرة في الكون والقرآن والحديث النبوي الشريف. فعدد السموات سبع وعدد أيام الأسبوع سبعة، وعدد أبواب جهنم سبعة، وعدد مرات الطواف حول الكعبة سبع... وهكذا.

وملخص هذه الطريقة يقول إننا عندما نضع أرقام القرآن بجانب بعضها وحسب تسلسلها في القرآن، فإنها تشكل أعداداً من مضاعفات الرقم سبعة دائماً!!! وبسبب وجود هذا القانون الرياضي في القرآن (مضاعفات الرقم سبعة) فقد تمَّ تأليف موسوعة في الإعجاز الرقمي تحوي أكثر من 700 مثال رقمي تثبت بدون أدنى شك وجود هذا النظام المحكم الذي يشهد على قدرة منزل القرآن عز وجل".

المحاضرة الثّامنة

الدّراسات القرآنيّة الاستشراقيّة وعلاقتها بالدّراسات القرآنيّة الحديثة

نبين في هذه المحاضرة كيف أثّر الاستشراق في الحركة الغربيّة والعربيّة على حد سواء، وسوف نتكلم عن ذلك من خلال العناصر التّاليّة:

أولا – المستشرقون دراستهم للقرآن وموقفهم منه

تناول الاستشراق القرآن الكريم وما يتعلق به من قضايا وموضوعات بالدّراسة منذ القديم، حيث تناولت الدّراسات القرآنيّة عند المستشرقين عدداً كبيراً من الموضوعات المرتبطة بالقرآن الكريم من منظور استشراقي يختلف كثيراً عن وجهة النّظر الإسلاميّة، وعلى الرّغم من أنّ معظم موضوعات الدّراسات القرآنيّة عند المستشرقين يدور حول شبهات استشراقيّة عن القرآن الكريم، ويمكن تلخيص مواقف المستشرقين من القرآن الكريم في نّقاط موجزة ومختصر، كالتّالي:

1 – أنّ القرآن كتاب بشري ألّفه محمد عليه الصلاة والسلام، ولا علاقة له بالصّبغة الإلاهيّة.

2 – أنّ القرآن ليس وحياً له صفة الغيبيّة، بل هو نصّ أدبيّ كباقي النّصوص.

3 – أنّ القرآن ليس معجزة يعجز البشر على نقده وتحليله والاتيان بمثله.

4 – أنّ القرآن ملئ بالتّناقضات؛ كالجبر والاختيار وغيرهما.

5 – أنّ القرآن خليط من كتب السّابقة؛ كاليهوديّة والنّصرانيّة ...، وعادات الأمم الأخرى.

فهذه هي مواقف المستشرقين القدامى من القرآن الكريم، والتي من خلالها انطلقوا في دراساتهم القرآنيّة المختلفة، وبقي الأمر على هذا حتّى جاءت الدّراسات القرآنيّة الحديثة التي لم تنفك عنه.

ثانيا – حركة الاستشراق الغربيّة الحديثة ورؤيتها للقرآن الكريم

ومع كلّ هذا لم تتوقّف الحركة الاستشراقيّة الغربيّة عن الاهتمام بالدّراسات القرآنيّة، فقد ظهرت مدارس وشخصيّات استشراقيّة متعدّدة، قدّمت دراسات كثيرة حول القرآن الكريم بمختلف اللّغات الأوروبيّة؛ كالإنكليزيّة، والألمانيّة، والفرنسيّة، وغيرها... وقد بلغت جهودهم وأعمالهم البحثيّة مبلغ إصدار موسوعات وإقامة مشاريع بحثيّة مشتركة، ومن المشاريع البحثيّة الحديثة المطروحة في الغرب:

1 – مشروع الموسوعة القرآنيَّة الألمانيَّة، الذي بدأ تنفيذه عام 2007م، وتستمرُّ فعاليَّاته حتَّى العام 2025م، وترعاه أكاديميَّة برلين– براندنبورج للعلوم، وتُشرف عليه المستشرقة الألمانيَّة المعاصرة "أنجليكا نويفيرت"، ويتولّى إدارته تلميذها "مايكل ماركس"، ويتركَّز عمل الباحثين فيه على مجالات أربعة؛ هي: دراسة المخطوطات القرآنيَّة. والمقارنة بين قراءات القرآن. والتعرُّف إلى الظروف التاريخيَّة

والدينيَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة في عصر نزول القرآن. وكذلك الدراسة التاريخيَّة والأدبيَّة للنصّ القرآنيّ.

2 – وثمَّة مشروع آخر باسم "Coranica" جاء دعمًا لمشروع " Corpus Coranicum"، وهو مشروع ألمانيّ – فرنسيّ يتألَّف من فريقين: فريق ألمانيّ بإشراف أنجليكا نويفيرت، وفريق فرنسيّ بإشراف فرانسوا ديروش. ويهدف هذا المشروع إلى المساهمة في تاريخ النّصّ القرآنيّ من خلال عمليَّة جرد لأقدم المخطوطات القرآنيَّة القديمة وتقريرها ودراستها والاهتمام بتحديد تاريخها بدقَّة؛ عبر تقنيّة فحص الكربون المشعّ(C14).

وكما نلاحظ، فإنّ الجهود العلميّة والبحثيّة الاستشراقيّة، ولا سيّما الألمانيّة والفرنسيّة كانت وما زالت نَشِطَة حاليًا؛ ولهذا تدور رؤية الكتَّاب المستشرقين المحدثين للقرآن بين عدّة أمور منها:

1 – أنّه كتاب غير مرتَّب يحتاج إلى ترتيب معقول يتماشى مع العقليّة الغربيّة.

2 – اعتبار القرآن الكريم تلخيصًا لأفكار محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

3 – علاقة القرآن بالكتب السّابقة هي مشغل الدّرس الاستشراقيّ الكلاسيكيّ والحديث.

ثالثا – تطوّر وتغيّر الدّراسات الاستشراقيّة القرآنيّة

الدّرس القرآني الغربيّ حقل متطوّر ومتغيّر بدأه المستشرقون ولا يزال يتطوّر ويتغيّر، ولا يكاد يستقر على مبدأ جامع، ويتميّز هذا الحقل بتنوع اهتماماته وتعدُّد مدارسه، وبنزعة نقدية مستمرّة تمكّن من تطوّره الدّائم، حتّى أصبح تخصصًا عالميًّا، ولم يَعُد استشراقًا فقط، وإنّما أصبح منهجًا يشتغل عليه مسلمون أيضًا سواء في الشّرق أو الغرب، والجامعُ بين هذه الدّراسات استبعادُها فرضيّة الوحيّ في التّعامل مع القرآن الكريم.

بقول محمّد حسين الصّغير: ومن خلال استقراء متنوّع الجهود الاستشراقيّة في الدّراسات القرآنيّة وجدنا أهمّ أعمالهم تدور حول الموضوعات التّاليّة بحسب أهميّتها عندهم، أو بحسب ما أنتجوه فيها:

1 – تأريخ القرآن الكريم، وكلّ ما يتعلّق بأسباب نزوله، وتأريخ سوره، ومكيّه ومدنيّه، وقراءاته ولهجاته، وكتابته وتدوينه، وما دار في هذا الفلك من رأي، أو فكرة أو نظريّة.

2 – ترجمة القرآن إلى مختلف اللّغات العالميّة والألسن الحيّة، ترجمة حرفيّة أو تفسيريّة أو لغويّة، جزئيّة وكليّة.

3 – نشر ما كتب عن القرآن وما ألّف فيه، وتحقيق النّصوص القديمة في آثاره، والتّدوين والفهرسة بمختلف الأصناف.

4 – بعد هذا وجدنا البحوث العامّة، والدّراسات المتنوّعة الّتي تنبثق عن القرآن في علومه وفنونه وبلاغته، ومسايرته للحياة في الفنّ والفلسفة والاجتماع.

رابعا – تأثر بعض رواد الدّرس العربيّ بالدّراسات الاستشراقيّة

ولا ريب أنّ بعض رواد الدّرس العربيّ قد تأثروا بتلك الدّراسات الاستشراقيّة الحديثة المتعلّقة بالقرآن الكريم، حيث تقول الكاتبة رغداء زيدان: "أنّ سبب ذلك يعود إلى حالة الانبهار المعرفيّ والاستلاب الفكري الذي نعاني منه كشعوب ضعيفة مقابل التّفوّق الغربيّ بعلومه ومناهجه ومنتجاته؛ ولهذا نرى كثيرًا من المفكرين اليوم يتأثرون بالدّرس الاستشراقيّ ويتبنوّن مخرجاته دون تمحيص أو نظر أو وعي لمرتكزاته الفكريّة والمنهجيّة، فمثلًا كان من تجلّيات مدرسة نولدكه في العالم العربيّ والإسلاميّ مدرسة (الأمناء)، التي أنشأها أمين الخولي سنة 1943م. وحاول الخوليّ من خلالها إيجاد منهج جديد في تحليل النّصّ القرآنيّ، فجعل المستوى الفنيّ في النّصّ القرآنيّ المقصد الأوّل في الدّرس، ودعا إلى اعتماد المنهج الأدبيّ في تفسير القرآن، والنّظر إلى القرآن من حيث هو كتاب العربيّة الأكبر، وأثرها الأدبيّ الأعظم... ومع ذلك فإنّه وضع قواعد لم يستطع هو نفسه الالتزام والإحاطة بها؛ لذلك لم يترك نتاجًا تفسيرًا علميًّا شاملًا لنظريته في قراءة النّصّ القرآنيّ، وكلّ ما تركه من دراسات قليلة أظهرت الفارق بين الواقع الذي قدّمه والمثال الذي دعا إليه".

ويؤكد الدّكتور عبد الرّزاق بن إسماعيل هرماس أن محمّد أركون من أكثر الباحثين تأثرا – في معرض سرده لأسماء تلاميذ المستشرقينً بالفكر الاستشراقي في فرنسا – فيقول: "ومن نماذج تلاميذ المستشرقين الذين استُبْقوا في الغرب – فرنسا – يحررون منشوراهتم بالفرنسيّة: د. محمد أركون، ويهمنا في هذا المطلب ما يتصل من كتاباته بربانيّة مصدر القرآن، وإن كان هذا الكاتب قد أضحى – عن جدارة – أكثر جرأة من أساتذته على الله وعلى كتابه، وعلى سنّة نبيّه – صلّى الله عليه وسلم – وعلى شريعة الإسلام، وبخصوص كلام أركون عن القرآن الكريم، فالملاحظ أنّه في جميع ما كتب عنه ظلّ وفيّا للتّراث الاستشراقيّ، ولا نكاد نجد شيئا من مطاعن المستشرقين – قديما وحديثا – لم يتَبنه ويدافع عنه، طريقته في ذلك واحدةً دائما: هي التلبيس على تلك المطاعن، بادعاء الاستفادة من المناهج المعرفيّة المعاصرة في فهم القرآن، لكنّ هذه الاستفادة تؤدي دائما إلى تزكية وتقرير مختلف أراجيف المستشرقين".

ويقول سعيد عبيدي: "لعلّ المتتبّع لأعمال محمّد عابد الجابريّ قد فوجئ بإصداره لكتاب ينتمي إلى ميدان علوم القرآن، وهو الكاتب الذي دعا طيلة حياته إلى إعادة قراءة التّراث بصفة عامّة وفق ما تقتضيه الظّروف والأحداث الرّاهنة، ولعلّ القارئ فوجئ أكثر بطريقة تناول هذا الباحث لموضوعات علوم القرآن التي تقرّرت أصولها ومُحّصت مسائلها، فجاء هو بهذا الكتاب يريد به إعادة قراءة ما اتّفق

عليه علماء المسلمين، والتّشكيك في أمور معلومة من الدّين بالضّرورة، وقد تبيّن لنا أنّ كتابه هذا هو في أكثره إعادة لآراء استشراقية، أو ترويج لأقوال قديمة تطرّق العلماء لبحثها وأماطوا اللّثام عن الالتباس أو الاشتباه فيها، وبيّنوا الحقّ لمن يريده ويطلبه".

يقول الدّكتور طه جابر العلوانيّ في الحوار الذي أجرته معه مجلة الكلمة: "إنّ الاستشراق الغربيّ ومنه الاستشراق الإسرائيليّ قد رصد مصادر التّراث الإسلاميّ وآثاره في تكوين النّفسيّة والعقليّة الإسلاميّة بشكل، جاد ولم يفته أنّ القرآن كان في مقدّمتها، بل هو الرّأس والأسّ الذي لا بدّ أن توجّه إليه الجهود الّتي تناسب مكانته وتأثيره وقدراته الدّائمة المستمرة على النّفس الإنسانيّة، وخاصّة النّفس الّتي تتذوّق العربيّة وتعرفها، وأنَّ أيَّ طعنة نافذة توجه إلى القرآن إذا أصابت الهدف فإنَّ تلك الطعنة قد تغني عن مجموعة كبيرة من المعارك الأخرى. «فالتّطبيع» الذي تنشده الدّوائر الصهيونيّة لا يمكن أن يتحقّق بشكل كامل وطبيعيّ والقرآن يُتلى والكعبة تزار.

ومن هنا يظهر أثر الاستشراق في الفكر الحداثي وبالخصوص فيما يتعلق بالنظرة إلى القرآن الكريم، ولولا الفكر الاستشرقي لما ظهرت الحداثة العربية بهذا الحضور وهذه الغزارة في التأليف، ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور مصطفى الحسن حين يقول: "لو افترضنا أن الاستشراق البحثي ظل يتمتع بالقوة التي ل وجهته نحو فهم الإسلام، لما كان للحداثيين العرب من دور، ذلك أنّ المستشرق لا يعترف بالباحث العربي ولا بقدراته العقلية"، وهذه الأمثلة التي ذكرت عن تأثر الحداثة العربية بالآراء الاستشراقية حول القرآن الكريم ليست إلا أمثلة نجد لها نظائرها في جل الكتابات الحداثية والاستشراقية على حد سواء".

وفي ختام هذا العنصر والمحاضرة كلّها نقول: أنّ العلاقة القويمة ستركّز على ما يمكن الاستفادة منه من الدّرس الاستشراقيّ بعيدًا عن الاستلاب الفكري أو الرفض الكلّيّ المسبق، والتّعامل معه تعاملًا علميًّا جادًّا، يفتح مجالات جديدة لتأكيد فكرةٍ أو الرّدّ على شبهة أو مناقشة رأي وتفنيده، فالقرآن علّمنا أنّ كنوزه لا تفنى، وأنّه محفوظ بحفظ الله، وأنّه هدى ونور، محرك للعقل والفكر والوجدان، يستحثّ الإنسان دائمًا على البحث، ويتحدّاه بإعجازٍ ملفتٍ دائمٍ لا ينقطع.

المحاضرة التّاسعة

الدّراسات القرآنيّة والمناهج الحديثة

في آخر هذه السّلسلة من المحاضرات المتعلّقة بالدّراسات القرآنيّة الحديثة؛ فإنّنا نختم بهذه المحاضرة التي سنتحدث فيها عن المناهج الحديثة التي اقتحمت حمى الدّراسات القرآنيّة في الوقت الحديث، وقد كنّا عرجنا على بعضها – من غير تعيينها بالحديث – فيما سبق من محاضرات، وهنا نخصّها بالذكر ونجمعها في هذه المحاضرة، حتّى نعطي الصّورة الكاملة وغير المجزأة على تلك المناهج التي كان لها الحضور القويّ في الدّرس القرآنيّ الحديث.

ولكن قبل ذلك نشير إلى أنّ المناهج الحديثة الّتي استُخدِمت في مجال الدّراسات القرآنيّة الحديثة كثيرة ومتنوّعة؛ منها النّسقيّة ومنها السّياقيّة، كالمنهج الاجتماعيّ، والنّفسيّ، والتّاريخيّ، ومنها الأدبيّ، ومنها اللّغويّ ... ونحن سنتكلم عن بعض المناهج النّسقيّة اللّغويّة، الّتي تنطلق من النّصّ وتعود إليه، وهذا لسببين اثنين:

أوّلها – لأنّها استخدمت بكثرة في الدّرس القرآني الحديث خصوصا، واستُخدِمت في الدّرس اللّغويّ عموما، ومنه جعل النّصّ القرآنيّ ميدانا لها كغيره من النّصوص اللّغوية الأخرى.

وثانيها – أنّ هذه المناهج التي سنذكرها أُعتُمِد عليها في دراسة النّصوص الدّينيّة – ومنها النّصّ القرآنيّ – بل كان ولوجها للنّصّ الدّينيّ مقصودا في حدّ ذاته عند الغربيّين والعرب على حد سواء، ولهذا استُخدِمت بكثرة وتبنّاها الحداثيون وغيرهم من المحلّلين اللّغويين، وإن اختلفت استعمالاتهم في التّطبيق، واختلفت نظرتهم للمناهج في حدّ ذاتها.

وهذا ما يجعلنا نقول بأنّ المناهج الغربيّة الحديثة فيها ما يؤخذ وفيها ما يردّ، وعليه يجب أن ننظر إليها من خلال خصائصنا ومسلّماتنا التّاريخيّة والدّينيّة والبيئيّة، فنأخذ ونستعمل ما كان منها مفيدا وفيه التّجديد الحقيقي المبنيّ على التّراكم المعرفيّ وتبادل الخبرات الإنسانيّة، بحيث يطوّر درسنا القرآنيّ ويعطيه أفقا جديدا مفيدا ومهما، ونردّ ما كان منها لا يتوافق وخصائصنا ومتنكرا لتراثنا ومُقزّما له، بحيث يريد صياغته وتركيبه ليكون غربيا لا يعترف بتراكمنا المعرفيّ بما فيه من قواعد وأصول ومناهج أثمرت تراثا ضخما ولا يزال يُنتِج وإلى اليوم.

نعود فنقول أنّ أهمّ المناهج اللّغويّة الحديثة الّتي أُستُعمِلت في حقل الدّراسات القرآنيّة الحديثة هي المناهج اللّسانيّة، فقد وُظِّفَت بداية في فهم وقراءة النّصوص الأدبيّة البشريّة بوجه عام، وانتقلت بعد ذلك إلى فهم نصوص الكُتب المقدّسة؛ كالتّوراة والإنجيل، فأبهرت هذه المناهج الدّارسين الغربيّين بقدرتها على التّحليل والبيان، هذا الانبهار سرعان ما استقطب اهتمامات جملة من الدّارسين المشتغلين بالقراءة

الحديثة للقرآن الكريم فحاولوا تطبيقها في تأويل آيّ القرآن الكريم، وهذا التّوظيف كان له أثره ونتائجه الّتي تجعل من التّطرق إلى بيان أثره ضرورة ملحّة.

ونحن سنقف في هذه المحاضرة على أهمّ المناهج اللّسانيّة الّتي وُظِّفَت في الدّراسات القرآنيّة الحديثة، والّتي منها:

أولا – المنهج البنيويّ: هو: "منهجية نقدية تحليلية، تقوم فلسفتها على اعتبار البنية الذّاتية للظواهر بمعزل عن محيطها الخارجي والتأثيرات الأخرى، فهي تنظر إلى تلك الظواهر من الداخِل، وتفترض أنّها مغلقة على ذاتها".

فالبنيويّة تعتمد في مساراتها التّحليليّة للنّصّ على إقصاء الخارجيّ والتّاريخيّ والإنسانيّ وكلّ ما هو مرجعيّ وواقعيّ في إنتاج النّصّ، وتركز فقط على ما هو لغويّ وكلّ ما من شأنه أن يستقرئ البنيّة الدّاخليّة للنّصّ دون الانفتاح على الظروف السّياقيّة الخارجيّة الّتي قد تكون قد أفرزت هذا النّصّ من قريب أو من بعيد.

وللإشارة فإنّه مع ظهور المدارس الحداثيّة المتأثّرة بالغرب وفلسفته وثقافته، فقد تعامل الغرب مع نصّه المقدّس – بغض النّظر عمّا وقع فيه من التّحريف – بعيدا عن سمة القداسة الّتي يجب أن يتّسم بها، فعومل على أنّه نصّ بشريّ يُؤوَّل ويُنتَقدّ بناء على ثقافة المؤوِّل وعلمه.

ولهذا نجد المنهج البنيويّ الّذي طبَّقه محمّد أركون على النّصّ القرآنيّ مُستعينًا بالمنهج الألسنيّ يُهدّم مصدرية النّصّ القرآنيّ ومعانيه؛ لأنّ دلالات الوحيّ تنهدم بإغلاق دلالة النّصّ على ذاته، وبتر مدلوله عن مقاصد الشّارع الحكيم وأسباب النّزول وغيرها من مفسّرات النّصّ الشّرعيّ.

فمثًلا أركون أثناء تحليله للبنيات النّحويّة لسّورة الفاتحة اعتبر أنّ آيات الفاتحة تنقسم إلى نوعين من الجُمَل: جُمل أصليّة، وعددها أربع: 1 – بِسْمِ اللَّهِ. 2 – الْحَمْدُ لِلَّهِ. 3 – إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. 4 – اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وما سواها جُمَل شارحة. وفيما يتعلّق بالنّظم والإيقاع في السّورة الكريمة، فقد تكلّم عن وجود قافية "إيم" متناوبة مع قافية "إين" في سورة الفاتحة.

فمِن مخاطر تقسيم أركون لآيات سورة الفاتحة أنّه بَنَى عليه أنّ التّشريعات ليست بنًى أصليّة، وإنّما بنًى تابعة شعائريّة؛ وكأنّ التّشريعات غير مقصودة بذاتها من الشّارع الحكيم، وتسميّته للفواصل قوافي غلطٌ؛ إذ لا يجوز تسميّة فواصل الآيات بالقوافي؛ لأنّ الله تعالى لما سَلَبَ عنه اسمَ الشّعر وجبَ سَلْبُ القافية عنه أيضًا؛ كما أنّ تسميّته للآيات جُمَلا تهدف إلى نزع القدسيّة عن آيات القرآن الكريم. وقد بيّن محمّد أركون انتماءه إلى لسانيات ما بعد السّتينيات، وهي اللّسانيات ما بعد البنيويّة، ويظهر ذلك من خلال تأثره البالغ بآراء "ميشال فوكو" خاصّة فكرة أركيولوجيا المعرفة، الأركيولوجيا (علم الآثار).

ثانيا – المنهج التّأويلي: ويسمى بـ: (الهرمينيوطيقا)، الّتي هي باختصار "نظريّة التّأويل وممارسته"، حيث يُركِّز التّأويل في أدقّ معانيه عادة على مقطوعات غامضة أو مجازيّة يتعذّر فهمها، أمّا في أوسع معانيه فالتّأويل هو توضيح مرامي العمل الفني ككلّ ومقاصده باستخدام وسيلة اللّغة.

فالهيرمنيوطيقا منهج لغوي يهتم بما وراء النّصوص؛ فهي ذلك الجزء من الدّراسات اللّاهوتيّة المعني بتأويل النّصوص الدّينيّة بطريقة خياليّة ورمزيّة تبعد عن المعنى الحرفيّ المباشر، وتحاول اكتشاف المعاني الحقيقيّة والخفيّة وراء النّصوص المقدّسة.

لهذا عندما تبنى الحداثيون المنهج التّأويليّ تبنوا القراءة التّأويليّة الّتي تبحث عن معانٍ متجدِّدة للنّصّ، وتجعل القارئ يتعلّق بروح النّصّ ومقاصده لا بحرفيّته؛ كما تجعل النصَّ حيًّا بالنّسبة للقارئ – في نظرهم – ويجيب عن إشكالات عصره وظروفه وثقافته.

ولهذا قَرّر الحداثيّ عبد المجيد الشّرفيّ بأنّ «العبرة ليست بخصوص السّبب ولا بعموم اللّفظ معًا، بل في ما وراء السّبب الخاصّ واللّفظ المستعمل له يتعيّن البحث عن الغاية والقصد. وفي هذا البحث مجال لاختلاف التّأويل بحسب احتياجات النّاس واختلاف بيئاتهم وأزمنتهم، مُستنِدًا إلى أمثلة تشكّك في فرضيّة أركان الإسلام؛ لذا فهو يجمل خصائص القراءة التّأويليّة في "البحث عن معانٍ متجدّدة للنّصّ ملائِمة لظروف الحياة المتجدّدة هي كذلك".

ويوضح الشّرفيّ أنّ: "الألفاظ يمكن أن تَكتَسِب أبعادًا جديدة، كما يمكن للقارئ بهذه القراءة أن يتعلّق بروح النّصّ ومقاصده لا أن يتقيد بحرفيّته" فمثًلا، يرى الشّرفيّ أنّ القرآن الكريم حثّ على صوم رمضان، إلّا أنّه "ترك الباب مفتوحًا لعدم صومه والتّعويض عن هذا الصّوم بإطعام مسكين أو مساكين. واستدلّ على ذلك بالآية المنسوخة: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ البقرة: 184. حيث يستخدم الشّرفيّ التّأويليّة ليشكك في المعاني الحرفيّة للقرآن الكريم وفي الأحكام المستنبطة منها؛ بدعوى البحث عن المقاصد الإلهيّة الشّاملة وراء الألفاظ.

وهكذا يُشكِّك الشّرفيّ في المعاني الحرفيّة للقرآن الكريم، وذلك ليفتح المجال أمام التّأويل الّذي يُخرج النّصّ القرآنيّ عن ظاهره دون احترام أدنى شروط وضوابط الاجتهاد المقاصديّ، ومنها: عدم معارضته للنّصّ القطعيّ الّذي ثَبتَ يقينًا في منظور الشّرع، إمّا بالتّنصيص عليه، أو الإجماع عليه، أو ما عُلِم من الدِّين بالضرورة، ومن هذه القطعيات: العقائد على نحو أركان الإيمان السّتة، والعبادات على نحو أركان الإسلام الخمسة. فالنّصّ القرآنيّ عند هؤلاء الحداثيين من خلال المنهج التأويليّ لا يمكن أن يحتمل معنى واحداً فقط، بل هو خاضع لمعاني عدّة، فكلّ نصّ – ومنه النّصّ القرآنيّ – قابل للتّأويل إلى أكثر من معنى، وفق فهم القارئ له.

ثالثا – المنهج التفكيكي: نشأت التفكيكية على أنقاض البنيويّة، وازدهرت في السّبعينيّات، من القرن الماضيّ، فهي منهجٌ فلسفيٌّ وطريقة جديدة لقراءة النّصوص، ترى أنَّه لا يوجد تفسير واحد للمعنى في نصٍّ ما، بل هي تفسيراتٌ غير محدودةٍ، وهي تقدِّم الكتابة على الكلام، ولذلك أصبحت النّصوص عُرضةً لنوعٍ جديدٍ من التّحليل والتّفسيرِ بعد ظهور المنهج التّفكيكيّ في العصرِ الحَديث.

ويعد (دريدا) الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا (1930- 2004م) من أصل جزائري ولد بالأبيار – الجزائر. هو مؤسّس التّفكيكيّة، فقد طرح آراءه في ثلاثة كتب نشرت في سنة 1967م؛ وهي «حول علم القواعد» و«الكتابة والاختلاف» و«الكلام والظّواهر» والمفهوم العامّ لهذه الكتب يدور على نفيّ التّمركز حول الميتافيزيقا المتمثّل في الثّقافة الغربيّة الوسيطة، فهذا المنهج التّفكيكيّ لا يعطي اعتبارا للمقدّس فيولد من خلاله أشياء كثيرة سكت عنها النقادّ القدماء.

وعليه فالتفكيكيّة باعتبارها منهجا نقديا هي بحث في النّسق الدّاخليّ للنّصّ، وخلخلة وتفكيك لكلّ المعاني الّتي تستمدّ مَنشأها من اللّوغس – الإله – وبالخصوص معنى الحقيقة. أمّا التّفكيكيّة باعتبارها أداة تحليليّة فهي: "فصل العناصر الأساسيّة في بناء ما عن بعضها البعض؛ لغرض اكتشاف الرّابط بين هذه العناصر والمكوّنات، واكتشاف الثّغرات ونقاط الضّعف والقوّة الموجودة في البناء، فالمحلّل ينتقل من المركّب إلى البّسيط، ومن الكلّ إلى الجزء.

وبناء على ما سبق فإنّ التّفكيكيّة تدعو إلى تفكيك النّصوص الأدبيّة عموما – لا سيّما النّصّ المقدّس والّذي منه النّصّ القرآني – وبعثرة المعاني، بترك السّلطة في فهم النّصوص لسلطة القارئ، وإلغاء سلطة المؤلف. وبهذا تعطي التّفكيكيّة السّلطة الحقيقيّة للقارئ لا للمؤلّف، كما تركّز تركيزاً كبيرا على الكتابة باقتلاع مفاهيم الكلام والصّوت وتقتل أحادية الدّلالة، وتدعو إلى تشتت المعنى بتخليص النّصّ من القراءة الأحاديّة، وتدعو التّفكيكيّة إلى موت المؤلف وميلاد القارئ وتعتبر النّصّ جملة من النّصوص السّابقة أو إقصاء لنصوص متعدّدة.

وتكاد تُجمِع جلّ الكتابات على أنّ القراءة التّفكيكيّة قراءة متضادّة، تثبت معنى للنّصّ ثمّ تنقضه لتقيم آخر على أنقاضه في إطار "إساءة القراءة"، فهي تسعى إلى إثبات أنّ ما هو هامشيّ قد يصير مركزيا إذا نظرنا إليه من زاوية مغايرة، هاهنا نستشف أنّ القراءة التّفكيكيّة تهدف إلى إيجاد تصدّع وشرخ بين ما يُصرِّح به النّصّ وما يخفيه، أي بين ما يُقال وما لم يتمّ التّصريح به.

وعلى سبيل المثال فإنّنا نجد محمّد عابد الجابريّ قد اعتمد على المنهج الّتفكيكيّ الّذي يعتمد على الفصل بين قُطبَي العلامة (الدالّ والمدلول)؛ حيث بدأ الجابري أوَّلا بالتّشكيك في معنى (الآية) في القرآن الكريم بقوله: "جميع العبارات القرآنية الّتي ورد فيها لفظ (آية) إنّما تُحِيل إلى معنى العلامة والحجّة والدّليل.

ثمّ شرع في دراسة آية المحكم والمتشابه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ آل عمران: 7 ، في سياق الآيات السّبع الأولى من سورة آل عمران.

وخَلُصَ الجابريّ – اعتمادًا على العلامات وعلى أسباب النّزول – إلى أنّ "الآيات المحكمات هي العلامات والدّلائل والظّواهر الكونيّة الّتي تدلّ على أنّ الله إله واحد"، وأنّ الآيات المتشابهات "هي العلامات الّتي أراد الله بها إثبات فعل خارق للعادة لأنبيائه ورسله" استخدم الجابريّ إذن التّفكيكيّة الّتي تُتيح للقارئ تفسير العلامات بالمعنى الّذي يشاء.

رابعا – المنهج السّيميائيّ: السّيمياء من السّيماء وهي العلامة أو الإشارة، وبالتّالي فالسّيميائيّة تعني العلاماتيّة وهى اسم للعلم الجديد، وقد عُرفت في الدّراسات اللّسانيّة والنّقديّة بمفهومها التّحليليّ الحالي بعد ترجمة مصطلح السّيميولوجيا الفرنسي، ومصطلح السّيميوطيقا الأمريكيّ حيث إنّ أغلب الباحثين العرب يستخدمون مصطلحات "السيميوطيقا" و"السّيميولوجيا" و"السّيميائيات" على أنّها أسماء دالّة على معنى واحد؛ فالسّيميائيّة هي منهج نقدي يتناول العمل الأدبي أو الفنيّ بجميع جوانبه الدّاخليّة والخارجيّة ويقوم على دراسة العمل، وما يحمله من علامات وإشارات لها دلالات بعيدة.

يعرّف سعيد بنكراد السّيميائيّة بأنّها: "دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعيّة"، ويقول: "بأنّها في حقيقتها كشف واستكشاف لعلاقات دلاليّة غير مرئيّة من خلال التّجلي المباشر للواقعة"، كما يقول: "بأنّها تدريب للعين على التقاط الضمنيّ والمتواريّ والممتنع، لا مجرد الاكتفاء بتسميّة المناطق أو التّعبير عن مكونات المتن". ويعرّفها شولز، بأنّها: "دراسة الإشارات والشّفرات، أي الأنظمة الّتي تمكن الكائنات البشريّة من فهم الأحداث بوصفها عالمات تحمل معنى". ويعرّفها بارت، بأنّها: "لعبة الدّلائل، أي القدرة على إقامة تعدّد حقيقيّ للأشياء في اللّغة المستعيدة ذاتها". أمّا أتكن فيعرّف السّيميائيّة، بأنّها: "الدّراسة العميقة للنّصّ والغوص إلى المعاني البعيدة، وقراءة ما بين السّطور ومحاولة اكتشاف الفكرة الّتي يريد الكاتب أن يوصلها بطريقة غير مباشرة". ويعرفها السّرغيني، بأنها: "ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العالمات أيّا كان مصدرها لغويّا أو سننيّا أو مؤشريّا، وحسب مدلول الجذر اللّغوي للكلمة فهي تعني علم العلامات والأنظمة الدّالة".

فالسّيميائيّة بشكل عام تعني الانفتاح على ما هو غائب في ضوء ما هو حاضر، وهذا يعني الذّهاب إلى أبعد ممّا هو مكتوب كنصّ، ومحاولة الكشف عين التّداعيات والدّلالات الكامنة في النّصّ. وفي إطار هذا المفهوم، ينظر إلى النّصوص اللّغويّة بأنّها تمثّل علامات تحمل دلالات قريبة وبعيدة، ظاهرة صريحة وأخرى كامنة خفيّة، وأنّ دراسة هذه النّصوص بشكلّ سيميائيّ واستكشاف العلاقات الدّلاليّة

غير المرئيّة من خلال التّجلي المباشر لوقائعها وأحداثها والتّدرب على إنتاج الدّلالات والمعاني الضمنيّة والمتواريّة والمتمنعة منها.

هناك بعض المحاولات لعرض النّصّ القرآنيّ على مختلف المنتجات النّقديّة الحديثة، لعلّ أبرزها أبحاث الدّكتور محمّد أركون الّذي كان سبّاقا إلى تطبيق المنهج الغربيّ ومسائلة على الخطاب القرآنيّ من منظور ما تقدّمه السّاحة الغربيّة من آليات ووسائل منهجية، وعندما نتحدّث عن السّبق فإنّنا نتحدّث عن عرضه للمنهج الألسنيّ السّيميائيّ وتطبيقه مباشرة على النّصّ القرآنيّ في كتابه "قراءات القرآن" الصّادر سنة 1982، وكتابه القرآن من التّفسير الموروث إلى نقد الخطاب الدّينيّ، وأهمّ كتبه في هذا الباب هو كتاب "الفكر الإسلامي قراءة علمية" الّذي طبّق فيه المنهج السّميائيّ على سورة التّوبة.

ولعلّ محمّد أركون من الأوائل الّذين حاولوا درس القرآن بصياغة جديدة تقوم على مراجعة كليّة للمفهوم من خلال النّصّ والتّطبيق من خلال المنهج، وهناك الكثير من النّماذج المشابهة الّتي تنتمي لنفس البيئة لعلّ أبرزها أدونيس، ونصر حامد أبو زيد، وحسن حنفي على غرار أركون.

يقول أركون: "إنّي لا أزال مصرّا على موقفي، ولا أزال أقول بأنّ التّحليل السّيميائيّ العلاماتيّ الدّلاليّ، ينبغي أن يحظى بالأولويّة؛ وخاصّة عندما يتعلّق الأمر بالنّصوص الرّئيسيّة التّأسيسيّة ذات الهيبة الكبرى، فالتّحليل السّيميائيّ يقدّم لنا فرصة ذهبيّة لكي نمارس تدريبا منهجيا ممتازا يهدف إلى فهم كلّ المستويات اللّغويّة الّتي يتشكلّ منها (المعنى) أو يتكوّن من خلالها".

ويمكن تقسيم الأهداف الّتي ينشدها أركون من وراء هذه المقاربة إلى ثلاثة أهداف رئيسيّة:

1 – هدف مرحليّ: يجعل من المقاربة السّيميائيّة خطوة نقدية أولى من أجل تأسيس مشروع نقدي كبير ينفتح على النّقد التّاريخيّ، والأنتروبولوجيّ.

2 – هدف على المدى القريب: تقديم قراءة جديدة للخطاب القرآنيّ مخالفة ومتحرّرة تماما من التّفسير التّقليديّ يمكنها أن تستوعب مظاهر العصر الحالي.

3 – هدف على المدى البعيد(الغاية): وهو الذي ينشده أركون ويسمّيه بمشروع القرن الذي يهدف إلى إدخال الفكر العربيّ والإسلاميّ إلى الحداثة والمعاصرة من بابها الواسع، حيث جعل من نقد الأصول الّتي ينبني عليها هذا الفكر مفتاحا لهذا المشروع.